المتغيرات الثقافية
في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب

د. أحمد بن عبدالعزيز الحليبي
كلية التربية - جامعة الملك فيصل بالأحساء

ترتكز جوانب التغيير في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - على الناحية العقدية، فقد أولتها جل عنايتها واهتمامها؛ نظرا لحاجة أحوال مجتمعه، الذي اعترته صور من الشرك ومظاهر من البدعة إلى إعطاء الأولوية لتصحيح العقيدة، وإقامة العبادة على مقتضى الدليل من الكتاب والسنة، ولا ريب أن هذه الناحية استغرقت من الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته كلها، وجهده كله؛ لأن الانحراف العقدي كان مستفحلا في نجد وما حولها، يدل عليه قول الشيخ حسين بن غنام(١): "كان غالب الناس في زمانه - أي الشيخ - متضمخين بالأرجاس، متلطخين بوضر الأنجاس؛ حتى قد أنهكوا في الشرك بعد حلول السنة المطهرة بالأرماس، وانطفأ نور الهدى بالانطماس بذهاب ذوي البصيرة والألباب المضيئة المنيرة، وغلبة الجهل والجهال، واستعلاء ذوي الأهواء والضلال؛ حتى نهجوا في تلك الطرائق منهجا وعرا، ونبذوا كتاب الله تعالى وراءهم ظهرا، وأتوا زورا وبهتانا وهجرا، وزين لهم الشيطان أنهم ينالون بذلك أجرا، ويحوزون به عزا وفخرا"(٢).

---

(١) هو حسين بن أبي بكر بن غنام، ولد بالأحساء، وأقام بالدرعية، وتوفي بها عام ١٢٢٥هـ، مؤرخ، وفقيه مالكي المذهب، وشاعر فحل، ناصر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، له مصنفان: الأول في العقيدة، والآخر في التاريخ. آل الشيخ، عبدالرحمن بن عبداللطيف، مشاهير علماء نجد، ص ١٨٥. الزركلي، خير الدين، الأعلام، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م، دار العلم للملايين، بيروت، ٢/٢٥١.

(٢) ابن غنام، حسين، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد الإمام وتعدد غزوات ذوي الإسلام، ١/٥.

إنه في ظل هذا التصوير الذي أورده ابن غنام لحال المسلمين لا يمكن لناحية أخرى أن تتقدم على الناحية العقدية في الحاجة إلى الإصلاح، والضرورة في التصدي والمعالجة، وهل يحق لها أن تستأثر على اهتمام الداعية والمصلح وهو يبصر الانحراف العقدي يمتد في مجتمعه، ويستعلي على الحق فيه، ويرى الضلال يستولي على عقول بني قومه وأهوائهم؟ أليس من الحصافة والحكمة أن يولي الشيخ محمد بن عبدالوهاب الناحية العقدية اهتمامه؛ لأنها الأساس الذي يقوم عليه بنيان الإسلام، وترتفع عليه أركانه، ويستمد منه مفاهيمه ومبادئه وقيمه ونظمه، ولأنها العلاج الناجع لهذا الانحراف والدواء الشافي لآثاره؛ لذا فإن معالم التغيير العقدي في دعوته كانت بارزة، تلحظ من أدنى نظر وتأمل؛ لأنه كان يعلم - كما يرى الأستاذ محمد بهجة الأثري - "أن محاولة الإصلاح بالبدء بتغيير جوانب الحياة الظاهرة وحدها إنما هو أخذ بذنب الإصلاح لا برأسه، وأن ما يملأ جوانب النفسية الإسلامية من رواسب العقائد الباطلة يقف حاجزا عاليا وسدا منيعا دون بلوغ كل أمل في تغيير الأوضاع القائمة مالم يُغَيَّر، ويملأ بالأفكار السليمة النابضة بالحياة كما يوحيها الإسلام الصحيح"(٣).

لكن هذا لا ينفي أن يكون لهذه الدعوة اهتمام بنواح أخرى؛ مثل: الناحية الثقافية أو الفكرية؛ فهي لم تعرف الانفصام بين أمور الدين وشؤون الحياة، ولا بين ما لله وما لخلقه؛ لذا يمكن وصفها بأنها دعوة إصلاحية متكاملة، قوية في سعيها إلى تلاحم الأمور الدنيوية بالأمور الدينية، والماديات بالمعنويات، واسعة في أرجائها، تسعى إلى الإصلاح الديني والفكري والاجتماعي والسياسي وغيرها(٤).

---

(٣) الأثري، محمد بهجة، الاتجاهات الحديثة في الإسلام، المطبعة السلفية، ص ٢٩.

(٤) العجلان، عبدالله بن محمد، حركة التجديد والإصلاح في نجد في العصر الحديث، ص ١١٧-١١٨.

لقد أسهمت قراءة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الواسعة، والرحلة إلى أماكن مختلفة من العالم الإسلامي، ولقاء العلماء في توسيع مداركه، ومده بالعلم الشرعي القائم على تعظيم الكتاب والسنة والعمل بهما، وصياغة نظرته الكلية والواقعية لقضايا المسلمين وأدوائهم، وتكوين حصيلته الثقافية الخصبة والمستقلة التي استمدها من معرفة دلالة القرآن الكريم والسنة المطهرة، والفهم المتحرر من ربقة التقليد والجمود على إرث الماضين، والوعي الناضج للعلماء المدركين لواقع الأمة وانحرافاتها، والأفكار والآراء التي احتوى عليها تراث الإمامين ابن تيمية(٥) وابن القيم(٦)، ونقدهما لكثير من الأوضاع الفاسدة والاتجاهات المذهبية المنحرفة السائدة في عصرهما.

وبرز الجانب الثقافي عند الشيخ محمد بن عبدالوهاب في متغيرات فكرية عدة عنيت بها دعوته، كان من أظهرها المعنى الشمولي الذي اعتمد عليه في تحرير مفاهيم الإسلام كمفهوم التوحيد ومعنى العبادة وغيرهما، والاهتمام بربط العمل بالعلم، وإصلاح المنهج التعليمي السائد، والحرص الشديد على إحياء مبدأ الالتزام بالإسلام في جميع شؤون الحياة، وفيما يأتي تفصيل لهذه المتغيرات الثقافية:

إرساء المعنى الشمولي للإسلام:

كان من أبرز انعكاسات الجمود الفكري والركود العلمي على منهجية أغلب العلماء في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ضيق النظرة وانحسار الفهم في ناحية من نواحي الإسلام؛ مما دفع بهم إلى تجزئة جوانبه في الطرح والدراسة والاهتمام، فبحثوا كل جانب مستقلا عن الآخر، ودون تصور أدنى علاقة بينهما، وانبرت له طائفة

---

(٥) هو أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم الحراني، صاحب التصانيف، ولد بحران سنة ٦٦١هـ، وتوفي بدمشق سنة ٧٢٨هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، دار الجيل، ١/١٤٤.

(٦) هو أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، من تلاميذ ابن تيمية، له مصنفات كثيرة، توفي سنة ٧٥١هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ٣/٤٠٠.

إن هذه التجزئة فرقت مفهوم الإسلام إلى مفاهيم جزئية عدة غريبة، لا يمكن أن ينسج منها مفهوم شامل واحد

منهم متخصصة لا تفقه غيره، فكانت منهم طائفة المتكلمين وعلماء العقيدة التي تعنى بدراسة الجانب الاعتقادي، وطائفة الفقهاء التي تقصر جهودها على دراسة المسائل العملية من عبادات ومعاملات وغيرها، وطائفة الصوفية وأهل الأخلاق التي تولت الاهتمام بدراسة الجانب النفسي والخلقي من الإنسان، وهكذا أعطت كل فئة عن الإسلام صورة خاصة تختلف عن الأخرى، إن هذه التجزئة فرقت مفهوم الإسلام إلى مفاهيم جزئية عدة غريبة، لا يمكن أن ينسج منها مفهوم شامل واحد؛ لأنها صيغت من أول الأمر منعزلة في الواقع، وغير مترابطة في المعنى، وكان من أثرها السلبي أن كرست تفريق الأمة إلى تلك الطوائف التي تنظر إلى الإسلام على أنه الجانب الذي تعنى به.

وكان من آثار هذه التجزئة في نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الاقتصار على علم الفقه وإهمال غيره من العلوم، وحصر مفهوم التوحيد في المقصود من توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وانحسار مفهوم العبادة في أركان الإسلام الأربعة عدا الشهادتين، ولعلنا ندرك من هذا سر اتساع الخصومة التي تعرض لها الشيخ محمد بن عبدالوهاب في دعوته، حينما فاجأ الطوائف التي تؤمن بهذه التجزئة بالدعوة إلى المعنى الشمولي للإسلام الذي تنتظم في سلكه كل الجوانب، ويعالج سائر جوانب علاقة الإنسان بالله تعالى ثم بالكون والحياة، هذه العلاقة التي تدور حول محور أساس واحد، هو توحيد الله تعالى وطاعته(٧).

لم يكن محمد بن عبدالوهاب إلا مجددا لهذا المعنى المندرس الذي يسعى إلى إظهار المعنى الشامل للإسلام، له في ذلك سلف يلحظه

---

(٧) نصير، آمنة محمد، الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب ومنهجه في مباحث العقيدة، دار الشروق، ص ٢٢٢.

الباحث مثلا في فهم التابعي ربعي بن عامر(٨) العميق والشامل للعبادة في الإسلام على أنها تعني تحرير الإنسان من جميع ألوان العبادة لغير الله(٩) لما قال لرستم في مجلسه جوابا عن سؤاله: "ما جاء بكم؟ فقال: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"(١٠)، أو في تعريفات من سبقه من علماء السلف، من ذلك تعريف ابن تيمية للعبادة على أنها "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"(١١) والشاطبي(١٢) لها على أنها "الرجوع إلى الله في جميع الأحوال والانقياد إلى أحكامه على كل حال"(١٣).

على هذا المنوال مضى الشيخ محمد بن عبدالوهاب يشرح معنى التوحيد والعبادة وغيرهما، ويرفض الركون إلى منهجية التفكير السائدة والقائمة على اجتزاء جانب، والاكتفاء به عن غيره، بعد أن رأى عيوب هذا المنهج ظاهرة في اجتماع التوحيد والشرك والاتباع والابتداع في آن واحد، وهما نقيضان لا يجتمعان، ولم ير علماء عصره في تلك المظاهر الشركية والممارسات البدعية ما ينقض التوحيد، ويرد قبول العمل، ويستوجب الحكم بالكفر، من هؤلاء أخوه الشيخ سليمان بن عبدالوهاب(١٤) الذي ناوأه، واعترض عليه وفق

---

(٨) ابن حراش، العبسي الكوفي، التابعي الجليل المشهور، يقال: إنه أدرك النبي ﷺ، مات سنة مئة، وقيل بعدها بسنة. ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة الكليات الأزهرية، ٣/٢٩٣.

(٩) حلمي، مصطفى، قواعد المنهج السلفي، دار الأنصار، ص ٤٧.

(١٠) ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، ٧/٣٩.

(١١) ابن تيمية، العبودية، المكتب الإسلامي، ص ٣٨.

(١٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي، فقيه مالكي أصولي، توفي سنة ٧٩٠هـ. الكتاني، محمد عبدالحي، فهرس الفهارس والأثبات، المطبعة الجديدة، فاس، ص١٣٤.

(١٣) الشاطبي، الموافقات، دار المعرفة، ٢/١٦٩.

(١٤) شقيق الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولد بالعيينة، فقيه، تولى القضاء في حريملاء، كان من المناوئين لدعوة أخيه والمثيرين للشبهات حولها، توفي سنة ١٢٠٨هـ. البسام، عبدالله بن عبدالرحمن، علماء نجد خلال ثمانية قرون، دار العاصمة، ٢/٣٥٠.

منطق التجزئة السائد؛ إذ يقول: "من أين لكم أن المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إذا دعا غائبا أو ميتا أو نذر له أو ذبح لغير الله أو تمسح بقبر أو أخذ من ترابه أن هذا هو الشرك الأكبر الذي من فعله حبط عمله، وحل ماله ودمه، وأنه الذي أراد الله سبحانه من هذه الآية ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وغيرها في القرآن؟"(١٥).

إن هذا الاستفهام "من أين لكم؟" يكشف منهجية الاعتراض الخاضعة لإطار التقليد المحض، والجمود على فهم متوارث، فهي لا تقبل التمعن والنظر في هذه الممارسات، والعرض من جديد على النصوص الشرعية بحجة أن ذلك من عمل المجتهدين، وترفض الأفهام الأخرى الخارجة عن هذا الإطار؛ لذا فإن الشيخ سليمان بن عبدالوهاب يحاور، فيقول: "فإن قلتم: فهمنا ذلك من الكتاب والسنة، قلنا: لا عبرة بمفهومكم، ولا يجوز لكم ولا لمسلم الأخذ بمفهومكم، فإن الأمة مجمعة على أن الاستنباط مرتبة أهل الاجتهاد المطلق"(١٦).

لقد ألجأت هذه المنهجية السائرين عليها على رغم ما كانوا يتصفون به من التهيؤ النفسي والعقلي إلى التناقض في الأقوال والاضطراب في الرأي لما حاورهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب، قائلا: "ما يفعله العوام عند قبور الصالحين ومع كثير من الأحياء والأموات والجن والتوجه إليهم ودعائهم لكشف الضر والنذر لهم لأجل ذلك، هل هو الشرك الأكبر الذي فعله قوم نوح ومن بعدهم إلى أن انتهى الأمر إلى قوم خاتم الرسل قريش وغيرهم، فبعث الله الرسل، وأنزل الكتب، ينكر عليهم ذلك، ويكفرهم، ويأمر بقتلهم حتى يكون الدين كله لله؛ أم هذا شرك أصغر، وشرك المتقدمين نوع غير

---

(١٥) ابن عبدالوهاب، سليمان، الصواعق الإلهية المحرقة في الرد على الوهابية، تحقيق بسام عميقة، ص١٦.

(١٦) المرجع نفسه، ص ١٦.

هذا؟ إلى أن قال: إنهم يقرون أنه الشرك الأكبر، ولا ينكرونه... ولكن يعتذرون بأن أهله لم تبلغهم الدعوة، وتارة يقولون: لا يكفر إلا من كان زمن النبي ﷺ، وتارة يقولون: إنه شرك أصغر، وينسبونه لابن القيم في المدارج، وتارة لا يذكرون شيئا من ذلك؛ بل يعظمون أهله وطريقتهم في الجملة، وأنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم العلماء الذين يجب رد الأمر إليهم عند التنازع إليهم، وغير ذلك من الأقاويل المضطربة"(١٧).

وواجه الشيخ محمد بن عبدالوهاب أقاويل خصومه المضطربة بقول واحد، يجمع الكلم في فهم كلي، استمده من الكتاب والسنة وأقوال كبار علماء الأمة؛ إذ لم يكن يرى في المنهجية الضيقة السائدة ما يبلغه غايته في العودة إلى صفاء الإسلام ونقائه، وإلى وحدة الأمة واجتماعها، وإلى مجاراة طبيعة الإسلام الشمولية التي خاطبت الإنسان معنية بكل نواحيه؛ مما زاده قناعة أنه لا مناص من تجديد الفكر الإسلامي الراكد ليكون وافيا لوصف الشمول إلى آخر الزمان(١٨)، وقد هيأه لهذا الأمر أنه كان يتمتع بخصلة عظيمة كما يقول الأستاذ محمد بهجة الأثري: "تقوم... على الفكر العميق الذي يتعلق بالكليات أكثر مما يتعلق بالجزئيات، ويطلب الجوهر لا العرض، واللباب لا القشور، وتلتمس في كل ذلك أسباب الحكمة وحسن التلقي والعطاء"(١٩).

لعل من أبرز القضايا التي عني بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب في دعوته، وصرف إليها حياته، واتضح في تناوله لها إرساؤه للمعنى الشمولي، ومنافحته عنه قضيتين؛ الأولى: توضيح معنى لا إله إلا الله، والأخرى: تحقيق معنى توحيد العبودية لله تعالى. وفيما يأتي مزيد بيان.

---

(١٧) ابن عبدالوهاب، محمد، القسم الأول من مؤلفات الشيخ، مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، جامعة الإمام، ص ٣٠٦.

(١٨) نصير، الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، ص٢٢١.

(١٩) الأثري، محمد بهجة، محمد بن عبدالوهاب داعية التوحيد والتجديد في العصر الحديث، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام، ص ٣٤.

القضية الأولى: توضيح معنى لا إله إلا الله

يعود السبب في عناية الشيخ محمد بن عبدالوهاب بمعنى لا إله إلا الله كلمة التوحيد العظيمة، الخفيفة على اللسان، التي ينطقها كل من ينتسب إلى الإسلام، ويكررها صباحًا ومساء إلى أنه لحظ على كثير من الناس أن النطق بهذه الكلمة وتكرارها يحدث دون حصول أثر يحجزهم عن إتيان الأعمال الشركية من دعاء الغائب والاستغاثة بالأولياء والجن والذبح والنذر لهم، ودون إدراك بأن ما أتوه يناقض كلمة التوحيد التي يتلفظون بها، أو شعور بما ارتكبوا من ظلم عظيم، أو تقدير لعظم ما فعلوا، فعلم أن ذلك راجع إلى أن العامة يكتفون "بالتلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني، والحاذق منهم - أي العالم - يظن أن معناها لا يخلق، ولا يرزق، ولا يحيي، ولا يميت، ولا يدبر الأمر إلا الله"(٢٠)، وهو جزء من معناها، وغاب عن فهمه أنها تعني أيضا إثبات الألوهية كلها لله وحده، ونفيها عن الأنبياء والصالحين وغيرهم، وهذا المعنى هو الفارق بين فهم المؤمنين والكفار الذين قاتلهم الرسول ﷺ وهم يقرون بالمعنى الأول كما قال تعالى: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾ [يونس: ٣١]، وكان شرك هؤلاء حاصلا في دعاء الأنبياء والصالحين، وندبهم، والنذر لهم، والتوكل عليهم، يفعلون ذلك معهم رغبة منهم في أن يقربوهم إلى الله زلفى(٢١)، كما ذكر الله تعالى عنهم في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**﴾ [الزمر: ٣].

---

(٢٠) ابن عبدالوهاب، محمد، القسم الخامس من مؤلفات الشيخ، الرسائل الشخصية، جامعة الإمام، ص ١٥٤.

(٢١) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ١٨٧-١٨٨.

إن تلك المظهرية المنحرفة عن منهج التوحيد النقي التي عانت منها نجد ما هي إلا صورة منعكسة عن الفهم الجزئي لمعنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله، الذي لم تكن البيئة العلمية تتسع لما هو أشمل منه معنى ودلالة، ولم تكن تقبل سواه بعد أن ألفت هذه المظاهر، وسكت عن إنكارها العلماء، ووجدت من يدافع عن وجودها، ويرفض مناقضتها للتوحيد؛ مما أدى إلى تكريسها في ذهنية الناس من عامة ومتعلمين، وكان محمد بن عبدالوهاب وهو ابن هذه البيئة أحد المتأثرين في أول طلبه للعلم بهذا الفهم مثل غيره، وقد صرح بهذا في قوله: "وأنا أخبركم عن نفسي... لقد طلبت العلم... وأنا ذلك الوقت لا أعرف معنى لا إله إلا الله، ولا أعرف دين الإسلام قبل هذا الخير الذي مَنَّ الله به، وكذلك مشايخي - في العارض بنجد - ما منهم رجل عرف ذلك"(٢٢).

إن الاستسلام للعادة والإلف دون نظر فاحص واستثمار للعقل يفوت على صاحبه إدراك الحقائق والمعاني، ومن ذلك ما فات على المتعلقين بهذه المظاهر المنافية للتوحيد من معرفة المعنى المراد من كلمة التوحيد، الذي لا يعرف كما يرى الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلا بالتفكر وفهم العبارة، لا بالمطالعة وحدها(٢٣)، نعم إن التخلي عن هذه المظاهر المنافية للتوحيد كان يتطلب من هؤلاء في ظل استمرائهم لها لعقود كثيرة من الزمن تفكرا دقيقا بحقيقة هذه المظاهر، وسعة علم بمعتقد السلف، وفهما متحررا من ربقة التقليد والجمود على الماضي، وهو ما فعله الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وإلا لما كان بإمكانه تغيير هذه المفاهيم والمعتقدات وإصلاحها، ولا يعني هذا أنه اقتصر على ما هو من عمل العقل للوصول إلى المعنى المراد، وإنما فعل ذلك سبراً لواقع الحال الذي لابد منه لمعرفة الخطأ والوقوف

---

(٢٢) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ١٨٦-١٨٧.

(٢٣) المرجع نفسه، ص ١٢١.

على أبعاده؛ وإلا فإن الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد اعتمد في تحرير المراد من كلمة التوحيد ومسائل العقيدة الأخرى على فهم نصوص الكتاب وما صح من السنة؛ لأن الله تعالى ورسوله ﷺ هما مصدر العقائد، وما عداهما من آراء المتكلمين وغيرهم لا تكون سائغة ومقبولة إذا لم تكن مستندة على كلام الله سبحانه وبيان رسوله ﷺ.

القضية الأخرى: تحقيق معنى توحيد العبادة لله تعالى

يسمى هذا التوحيد أيضا بتوحيد الإلوهية؛ لأنه مبني على إخلاص التأله لله تعالى، وهو إخلاص العبادة لله تعالى(٢٤)، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بتحقيقه، فقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، ولما أخذ الرسول ﷺ يدعو قومه من مشركي مكة إلى كلمة لا إله إلا الله فهموا أنها تعني أنه لا معبود إلا الله، وتقتضي نبذ شرك العبادة بكل أنواعه؛ لذا لم يستجيبوا، وشق عليهم أن يتخلوا عن معبوداتهم بعد أن ألفوها، واعتادوا تعظيمها، فكان ردهم - كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] - ينطق بالتكبر على هذه الدعوة، ويلهج بإنكار ما تنهى عنه كلمة التوحيد من اتخاذ الشركاء والأنداد، وتأمر به من إخلاص العبادة لله تعالى(٢٥).

لقد انتشر الشرك بين كفار مكة حتى عم وطم، وصار للأوثان نصيب من عبادتهم يدعونها ويلجؤون إليها في الشدائد، ويتمسحون بها، ويتبركون بها، ويخشونها ويرهبونها، ويجعلون لها نصيبا من الحرث مماثلا لما لله تعالى، قال تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

---

(٢٤) آل الشيخ، سليمان بن عبدالله، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، المكتب الإسلامي، ص ٣٨.

(٢٥) السعدي، عبدالرحمن، تفسير كلام المنان، المؤسسة السعيدية، ٦/٤٠٨.

ولم يقع منهم الشرك وتتعدد مظاهره إلا وهم مقرّون بتوحيد الربوبية، يشهدون أنه لا يخلق ولا يسخر الشمس والقمر، ولا ينزل المطر، ولا يحيي الأرض بعد موتها إلا الله وحده، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]. ومع ذلك لم ينقلهم هذا الإقرار إلى الإيمان؛ بل قاتلهم ﷺ مع أنهم يعرفون الله، ويعظمونه، ويحجون، ويعتمرون، ويزعمون أنهم على دين إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام(٢٦)؛ لأنهم استكبروا عن الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، وناهضوه في دعوته إلى التوحيد التي هي دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من قبله، فلم يوحدوا الله في العبادة؛ بل أشركوا معه غيره، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ لكن الرسول ﷺ مضى رغم عنادهم ومكابرتهم يدعو إلى عبادة الله وحده، وينبذ الشرك على خطا خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ إذ قال كما أخبر الله عنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وسار الشيخ محمد بن عبدالوهاب على هدي الرسول ﷺ في دعوته إلى توحيد العبادة بعد أن قصرت أفهام الناس عن إدراك دلالة لا إله إلا الله على توحيد العبادة، وفسد عليهم فهمهم للدين، "وزين لهم الشيطان الشرك بالله، وأخرجه لهم في قالب حب الصالحين وتعظيمهم"(٢٧)، فبنوا على قبورهم المقامات والأضرحة والمزارات، وفتنوا بها، وتعلقوا بها، وكثر منهم الاعتقاد في الأشجار والأحجار، والتبرك بها، والنذر لها، والاستعاذة بالجن، والنذر لهم(٢٨)،

---

(٢٦) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ١٢٤.

(٢٧) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية ص ١٢٤.

(٢٨) ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، ١٩/١.

وساء معتقدهم في الله بسبب جهلهم بتوحيد العبادة لما جعلوا له شركاء في عبادته، متأثرين بمسلك المتكلمين العقدي، وقد شاع هذا المسلك بين الناس، وسار عليه علماء نجد آنذاك، فنشأ عنه أمران:

الأمر الأول: الجهل بتوحيد العبادة أو ما يسمى بتوحيد الألوهية؛ مما أدى إلى خفاء معنى الشرك وأنواعه من الناحية العلمية والعملية، يدل على هذا ما صرح به الشيخ عبدالله بن عيسى بن عبدالرحمن(٢٩)، وهو من أجل علماء نجد في زمنه؛ إذ قال في رسالته التي وجهها إلى عموم المسلمين: "الله الله عباد الله، لا تغتروا بمن لا يعرف شهادة أن لا إله إلا الله، وتلطخ بالشرك وهو لا يشعر، فقد مضى أكثر حياتي، ولم أعرف من أنواعه ما أعرفه اليوم، فلله الحمد على ما علمنا من دينه"(٣٠).

الأمر الآخر: عدم الإقرار بأن توحيد الألوهية مستقل عن توحيد الربوبية؛ وإن أقروا به نظريا جعلوه من لازم توحيد الربوبية، وفي هذا يقول الشيخ أحمد زيني دحلان(٣١) في سياق رده: "وأما جعلهم التوحيد نوعين: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية فباطل، فإن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ**﴾ [**الأعراف**: ١٧٢]، ولم يقل: ألست بإلهكم، فاكتفى منهم بتوحيد الربوبية، ومن المعلوم أن من أقر له بالربوبية فقد أقر له بالألوهية؛ إذ ليس الرب غير الإله؛ بل هو الإله بعينه"(٣٢).

---

(٢٩) هو قاضي الدرعية، أثنى عليه الشيخ محمد في إحدى رسائله، له رسالة حول معرفة لا إله إلا الله، ما ورد في المتن جزء منها، استجاب للدعوة في بداية أمرها ثم تغير موقفه منها. ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، ١/١٤٧-١٤٨، ١٥٦-١٥٨.

(٣٠) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ١٩٣.

(٣١) هو فقيه ومناوئ لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولد بمكة، وتولى الإفتاء والتدريس فيها، ومات بالمدينة سنة ١٣٠٤هـ. الزركلي، الأعلام، ١/١٢٩.

(٣٢) ابن قاسم، عبدالرحمن بن محمد، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ص ٣٧.

كان من نتيجة الجهل بتوحيد العبادة وحصر معناه في معنى توحيد الربوبية التهاون في جانب إخلاص العبادة لله تعالى، وهو أحد شرطي قبولها، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، فصرف كثير من الناس عبادتهم إلى غير الله كالدعاء والندبة والاستغاثة والذبح، واعتقدوا أن فعلها لا يناقض التوحيد؛ إذ هي ليست من العبادة التي يجب أن تصرف لله تعالى، وليست من الشرك الأكبر المنافي لمعنى توحيد الربوبية. ولعلنا ندرك حقيقة هذا الفهم الجزئي بالمقارنة مع فهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب الشامل لكل أنواع التوحيد، ومنها توحيد العبادة الذي عني به، ودعا إليه، وذلك إذا تأملنا الحوار الذي ساقه الشيخ في كتابه "كشف الشبهات" مع معارض له في تقرير توحيد العبادة؛ إذ يقول: "إن قال: أنا لا أعبد إلا الله، وأن الالتجاء إلى الصالحين ودعاءهم ليس بعبادة. فيقال له: أنت تقر أن الله فرض عليك إخلاص العبادة لله وحده، وهو حقه عليك. فقل له: ... قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] ... هل علمت - من هذه الآية - أن الدعاء عبادة لله؟ فلابد أن يقول: نعم، والدعاء مخ العبادة، فقل له: إذا أقررت أنها عبادة، ودعوت الله ليلا ونهارا خوفا وطمعا، ثم دعوت في تلك الحاجة نبيا أو غيره، هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلابد أن يقول: نعم... وقل له أيضا: المشركون الذين نزل فيهم القرآن، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلابد أن يقول: نعم. فقل: وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح، والالتجاء ونحو ذلك؟ وإلا فهم مقرّون أنهم عبيده، وتحت قهره، وأن الله هو الذي يدبر الأمر، ولكن دَعَوهم، والتجؤوا إليهم للجاه والشفاعة، وهذا ظاهر جدا"(٣٣).

---

(٣٣) ابن عبدالوهاب، كشف الشبهات، علق عليه الشيخ علي الحمد الصالحي، ص٣٠-٣١.

لقد فهم الشيخ أن توحيد العبادة هو حقيقة دين الإسلام، وأنه يعني إفراد الله بجميع أنواع العبادة، وذلك بفعل المأمور وترك المحظور والإخلاص فيه لله تعالى وحده، وفي هذا يقول: إن "أعظم الدين وأكبره وزبدته هو إخلاص الدين لله بعبادته وحده، لا شريك له، والنهي عن الشرك، وهو أن لا يدعو أحدا من دونه من الملائكة والنبيين فضلا عن غيرهم، فمن ذلك ألا يسجد، ولا يركع إلا له، ولا يدعو لكشف الضر إلا هو، ولا لجلب الخير إلا هو، ولا ينذر إلا له، ولا يحلف إلا به، ولا يذبح إلا له، وجميع العبادات لا تصلح إلا له وحده لا شريك له"(٣٤).

إن شمولية معنى توحيد العبادة تقتضي أن من أشرك في عبادة أو قربة مما لا يصلح إلا لله قد ناقض التوحيد(٣٥)؛ إذ الشرك ليس مخصوصا بعبادة الأصنام من الأخشاب والأحجار، واعتقاد أنها ترزق وتدبر فحسب؛ بل هذا التخصيص فهم خاطئ يرده ما أبانه الله تعالى في القرآن الكريم(٣٦) من استحالة أن يأمر الرسول ﷺ الناس بعبادة الملائكة والنبيين أربابا من دون الله؛ لأن هذا مناف لما أمِر من الدعوة إلى توحيد العبادة لله تعالى وحده ونبذ الشرك بكل صوره وألوانه، فكيف يأمر بضده(٣٧)، قال تعالى: ﴿**وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٨٠]؛ لذا فإن ما أنكره الشيخ محمد بن عبدالوهاب هو ما ينافي معنى الإخلاص في التوحيد من تعظيم الأشخاص مهما علت مرتبتهم، والغلو فيهم بما هو حق لله تعالى وحده، وفي هذا يقول: "اعلم أن التوحيد الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم إفراد الله بالعبادة كلها، ليس فيها حق لملك مقرب، ولا نبي مرسل؛ فضلا عن غيرهم، فمن ذلك لا يدعو إلا إياه، كما قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ**

---

(٣٤) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ١٢٤.

(٣٥) آل الشيخ، تيسير العزيز الحميد، ص ٣٩.

(٣٦) ابن عبدالوهاب، كشف الشبهات، ٣٤-٣٥.

(٣٧) السعدي، تفسير كلام المنان، ١/٣٩٥.

فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فمن عَبَد الله ليلا ونهارا، ثم دعا نبيا أو وليا عند قبره فقد اتخذ إلهين اثنين، ولم يشهد أن لا إله إلا الله؛ أي: تحقيقا؛ لأن الإله هو المدعو كما يفعل المشركون اليوم عند قبر الزبير(٣٨) أو عبدالقادر(٣٩) أو غيرهم، وكما فعل قبل هذا عند قبر زيد(٤٠) وغيره، ومن ذبح لله ألف ضحية ثم ذبح لنبي أو غيره فقد جعل إلهين اثنين كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] ... فمن أخلص العبادات لله، ولم يشرك فيها غيره فهو الذي شهد أن لا إله إلا الله، ومن جعل فيها مع الله غيره فهو المشرك الجاحد لقول لا إله إلا الله"(٤١).

إن غياب المفهوم الصحيح لتوحيد العبادة هو الذي حمل الشيخ محمد بن عبدالوهاب على الاهتمام بهذا النوع من التوحيد؛ لأنه وجد أن الانحراف السائد في بيئته آنذاك كان بسبب جهل هذا المعنى، فقد انسلخ الناس من تحقيق هذا التوحيد حينما قصدوا الأموات للاستغاثة بها، وانكبوا على تعظيم القبور وتقديس المدفونين فيها من الأنبياء والأولياء والصالحين، واشتغلوا بأنواع من الشركيات المضادة للتوحيد، وهذه الحال المنحرفة هي التي دفعت الشيخ إلى تأليف كتابه: "التوحيد الذي هو حق الله على العبيد"، وجعل أغلبه في توحيد الألوهية وما يضاده(٤٢)، وإلى تأليف غيره من الرسائل،

---

(٣٨) هو الصحابي الجليل الزبير بن العوام القرشي الأسدي، حواري رسول الله ﷺ، وأحد المبشرين بالجنة، قتل سنة ست وثلاثين غدرا بعد منصرفه من الجمل في العراق. العسقلاني، الإصابة، ٤/٧.

(٣٩) هو ابن أبي صالح بن جنكي دوست الجيلاني الحنبلي الزاهد، ولد بجيلان سنة ٤٩١هـ، وقدم بغداد وتفقه على علمائها، اشتغل بالوعظ وبرَّز فيه، توفي ببغداد سنة ٥٦١هـ. الكتبي، محمد بن شاكر، فوات الوفيات، دار صادر، ٢/٣٧٣.

(٤٠) هو ابن الخطاب بن نفيل العدوي، شهد بدرا والمشاهد، استشهد باليمامة سنة اثنتي عشرة في خلافة أبي بكر. العسقلاني، الإصابة، ٤/٥٢.

(٤١) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص١٦٦-١٦٧.

(٤٢) العبداللطيف، عبدالعزيز بن محمد، جهود الشيخ محمد بن إبراهيم في مسألة الحاكمية، رسالة ماجستير، ص ١٠.

مثل: رسالة "مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية"، ورسالة "كشف الشبهات" وغيرهما من التقريرات والرسائل الشخصية، وقد ألمح الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن إلى أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب أبدى فيها فهما مغايرا لما كان سائدا آنذاك من تفسير المتكلمين لمعنى كلمة الإخلاص، هذا الفهم "دل عليه الكتاب المصدق والإجماع المستبين المحقق، من نفي استحقاق العبادة والإلهية عما سوى الله، وإثبات ذلك لله سبحانه على وجه الكمال المنافي لكليات الشرك وجزئياته، وأن هذا هو معناها وضعا ومطابقة، خلافا لمن زعم غير من ذلك من المتكلمين"(٤٣).

ولم تكن الشمولية عند الشيخ محمد بن عبدالوهاب مقصورة على هاتين القضيتين، بل هي نظرة مطردة عنده في كل القضايا؛ فمثلا معنى الولاية نجده قد بلغ فيها القمة حين لحظ أن تمام الدين بالدولة، وقرر أن المصلحة فيها لا تتم إلا بالاجتماع، وأن هذا الاجتماع لابد له من آمر وناه، ولذلك حرص عليها من أول أمر دعوته لتحفظ عن طريقها مقاصد الشرع ومصالح العباد(٤٤)، وفي هذا المعنى يقول: "جميع الولايات مقصودها أن يكون الدين كله لله، فإنه سبحانه إنما خلق الخلق لذلك، وذلك هو الخير والبر والتقوى والحسنات والقربات والباقيات الصالحات والعمل الصالح، وإن كان بين هذه الأسماء فروق لطيفة، ولا تتم المصلحة في الدين والدنيا إلا بالاجتماع، وإذا اجتمعوا فلابد من أمور يجتنبونها لدفع المفسدة، ويقومون للأمر بها والنهي عنها، فلابد من آمر وناه. وإذا كان لابد من ذلك فدخول المرء تحت طاعة الله ورسوله ﷺ الذي

لم تكن الشمولية عند الشيخ محمد بن عبدالوهاب مقصورة على هاتين القضيتين

---

(٤٣) ابن سحمان، سليمان، الهدية السنية، مكتبة التوفيق، ص ٨٠.

(٤٤) الأثري، محمد بهجة، محمد بن عبدالوهاب داعية التوحيد والتجديد في العصر الحديث، ص ٣٨.

يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث خير له"(٤٥).

وهكذا تمكن الشيخ محمد بن عبدالوهاب من خلال إرسائه المعنى الشمولي للإسلام أن يحدث تغييرا فكريا، يقوم على إلغاء نظرة التجزئة للإسلام، وتأكيد فكرة التلازم بين قضاياه، وإحلال النظرة الكلية التي تجمع ولا تفرق، وتعمل على صياغة الإسلام على أنه نسيج واحد مترابط الأجزاء، واستطاع أن يعيد بناء الأفكار والمفاهيم على أساس من الكتاب والسنة وقواعد الفهم المعتبر عند علماء السلف الصالح من غير غلو أو جفاء، وبهذا يكون الشيخ قد صوَّب كثيرا من المفاهيم المنحرفة في زمنه، وأسَّس للسلفية المعاصرة مفهوما متكاملا في العقيدة والحياة ونظام الحكم يحقق عبودية الإنسان المسلم لله تعالى بمفهومها الشامل(٤٦).

وكان من معطيات هذا التغيير الفكري الذي حققته دعوة الشيخ ما يأتي:

١ - تنظيم العلاقة بين الخالق والمخلوق: استطاعت هذه الدعوة عن طريق المعنى الشمولي أن تعالج سائر جوانب علاقة الإنسان بالله تعالى ثم بالكون والحياة، وأن تقيمها على محور أساس هو التوحيد الذي يستلزم طاعة الله تعالى بالتزام أمره واجتناب نهيه(٤٧)، ويقتضي أن يعترف المخلوق بسلطان الله وهيمنته على جميع أموره، والاعتراف له وحده بحق التعظيم والتقديس والتأليه والعبودية المطلقة دون ما سواه من طواغيت(٤٨).

---

(٤٥) المرجع نفسه، ص ٣٨.

(٤٦) الكردي، راجح، الاتجاه السلفي الحديث بين التأصيل والمواجهة، ضمن بحوث ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ص٢٣٠-٢٣١.

(٤٧) نصير، الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، ص ٢٢٢.

(٤٨) خياط، عبدالله، حركة الإصلاح الديني في القرن الثاني عشر، مجلة البحوث الإسلامية، العدد الأول، رجب ١٣٩٥هـ، ص ١٣٧.

٢ - تحقيق الاستسلام التام والإذعان الشامل لله تعالى، فقد عملت هذه الدعوة على إقامة جوانب حياة الإنسان على الإسلام دون استثناء، وقررت ارتباطها بمصادر الدين الحنيف، فالله سبحانه هو مصدر العقائد وهو مشرع الأحكام، لا يحق لسواه أن يعتقد في الله أو أن يحلل ويحرم حسب هواه، قال تعالى: ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى: ٢١]، وأكدت أنها تلزم الإنسان المسلم "بفكرة التوحيد في العقيدة مجردة من كل شريك، وفكرة التوحيد في التشريع فلا مصدر إلا الكتاب والسنة"(٤٩)، ولا تقبل منه التجزئة في العقائد والأحكام بحيث يؤمن ببعض، ويجحد بعضا؛ لمنافاته لهذا التوحيد، يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب: "لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدَّق رسول الله ﷺ في شيء وكذَّبه في شيء أنه كافر، لم يدخل في الإسلام، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن، وجحد بعضه، كمن أقر بالتوحيد، وجحد وجوب الصلاة، أو أقر بالتوحيد والصلاة، وجحد وجوب الزكاة، أو أقر بهذا كله وجحد الصوم، أو أقر بهذا كله وجحد الحج... ومن أقر بهذا كله وجحد البعث كفر بالإجماع، وحل دمه وماله"(٥٠)، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

٣ - توثيق الارتباط بين أجزاء الإسلام وتأكيد التأثير المتبادل بين جوانبه، إذ نظرت هذه الدعوة إلى الإسلام على أنه كلٌّ متكامل الأجزاء والجوانب، فعملت على إظهار ترابطه وتلازمه على أنه وحدة واحدة، وسعت إلى إزالة الآثار السلبية للفكر التجزيئي

---

(٤٩) أمين، أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، ص ١٢.

(٥٠) ابن عبدالوهاب، كشف الشبهات، ٤٠-٤١.

القائم على دراسة جوانب الإسلام منعزلا بعضها عن بعض، وإعطاء صورة عن الإسلام من الجزء الذي تناوله، ومن أبرز هذه الآثار السلبية تمزق نفسية المسلم وتشتت عقليته، الأمر الذي ترتب عليه الجهل بحقيقة الإسلام وصورته الصحيحة، وبروز صورة مشوهة وباهتة للإسلام كانت سببا في إساءة الظن به، ونفور كثير من الناس عنه، مما جعل الحاجة ملحة وضرورية إلى عرض الإسلام من جديد بكل موضوعية ونقاوة في صورة مبرأة من التشويه، شاملة لجميع جوانب الإسلام وأجزائه المترابطة(٥١).

ولم تقتصر الشمولية في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب على العناية بالمعاني الكلية فحسب، بل حتى في تناول الموضوعات، فقد كشفت آثار الشيخ محمد بن عبدالوهاب العلمية تنوعا واتساعا، شملت العقائد والعبادات والمعاملات والأحوال الاجتماعية والقضايا الجنائية والأخلاق وشؤون الدولة، وبهذا تكون قد تميزت في العصر الحديث على غيرها من الدعوات التي اجتزأت جانبا من جوانب الإسلام، واكتفت به عن غيره(٥٢).

الربط بين العلم والعمل

لا يمكن أن تحصر الدينونة التامة لله تعالى في مجرد المفاهيم الشاملة والمعاني الكلية، ولا يمكن القيام بأداء حق العبودية الشاملة والطاعة الكاملة لله تعالى من خلال الاقتصار على فهم نصوص الكتاب والسنة وترديد كلام العلماء والفقهاء السابقين مع استبعاد الناحية العملية؛ إن هذا لا يحقق معنى الإسلام الشمولي من أنه فكر وعمل، منهج وتطبيق، تشريع وحكم، وأنه كل لابد أن يؤمن الناس بكل تفصيلاته ويلتزموها(٥٣) في حياتهم استسلاما لله تعالى وانقيادا.

---

(٥١) حلمي، مصطفى، قواعد المنهج السلفي، ص ٤٧.

(٥٢) نصير، الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، ص ٢٢٢.

(٥٣) التركي، عبدالله، مقدمة ملحق مصنفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب، جامعة الإمام، ص ٢.

إن هذا الربط بين العلم والعمل مما تميز به الإسلام على اليهود والنصارى، فقد ذكر الله تعالى أن اليهود تولوا عن التوراة، وأعرضوا عنها فكانوا مفرطين في العمل، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣] خلافا للنصارى الذين عملوا على غير هدى من الله تعالى، فكانوا مفرطين في العلم، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، وفي بيان مغبة هاتين الحالين يقول ابن تيمية: "إن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم، فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه قولا أو عملا، أو لا قولا ولا عملا، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم؛ فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون، ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة(٥٤) (إمام زاهد، حج سبعين حجة)، وغيره يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى"(٥٥).

لقد دب في أمتنا داء من قبلنا، فوجدت صورتان شبيهتان بهاتين الحالتين من جهة التفريط في ارتباط العلم بالعمل، الأولى: تصدق على فئة من المنتسبين إلى العلم أقبلت عليه تعلما وتعليما؛ لكنها عزلته عن العمل، ولم يمتد أثره إلى إصلاح الواقع، والأخرى: تصدق على عامة من الناس انتسبوا إلى الإسلام؛ لكنهم فتنوا بتعظيم القبور والتعلق بها قصدا وتبركا واستشفاعا، فالفئة الأولى على ما عندها من علم لم تنكر ما عم حولها من منكر وباطل، ولم تسع إلى تغييره، والأخرى لم تحاول أن تتبين حكم الله تعالى فيما درجت عليه من انحراف عقدي وفكري، وتعرضه على ميزان الشرع لتعرف صوابه من خطئه.

---

(٥٤) الهلالي بالولاء، ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ، ثم نقله أبوه إلى مكة توفي فيها سنة ١٩٨هـ. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان، دار صادر، ٣٩١/٢.

(٥٥) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، دار الفكر، ص ٥.

تلك صورة فئتين من الناس زمن قيام الشيخ محمد بن عبدالوهاب بدعوته، وتلك مواقفها، لم يسايرها الشيخ؛ بل راح يتأملها، فراعته الصورتان، وراعه سوء حال الفئتين وهو يستصحب منهجه في استثمار العقل في تأمل الواقع، وعرض ما يصل إليه على ميزان الشرع بالقدر الذي تلقاه من العلم، فازدادت نفسه وحشة ونفرة من هذه المنكرات، وغيرة على محارم الله التي انتهكها الجهلة، وسكت عن إنكارها العلماء، لقد كان مما تلقاه ألا تتخذ قبور الأنبياء مساجد، وألا يدعى أحد من دون الله فإذا هو يشهد الناس يعظمون القبور، ويتمسحون بمبانيها، ويدعونها من دون الله، فتبين له أنها أمور تخالف أصول الدين الثابتة بالضرورة، وأنه لابد من تخليص العلم من قبضة الجهل وهيمنة الخرافة، وتقييده بمصادر الدين الصحيحة؛ لإنكار الباطل وإزالته(٥٦)، وليكون العمل قرينا للعلم الصحيح.

لقد كان الشيخ في نظرته للواقع، ومعالجته لأدوائه منطلقا من منهجية واضحة تقوم على أساس الربط بين العلم والعمل، يعد من أبرز ملامحها:

- أن الإسلام بعقائده وتشريعاته ومفاهيمه ليس مجرد قضايا ذهنية وفكرية معزولة عن الواقع، ومفصولة عن العمل؛ بل يرى الشيخ "أن الإسلام واتباع ملة الأنبياء هو العلم بذلك والعمل به، لا مجرد العلم"(٥٧).
- أن العلم يستلزم العمل، و"أن العالم لا يسمى عالما إلا إذا أثمر فيه العلم؛ فإذا لم يثمر فهو جاهل"(٥٨).
- أن العمل مقترن بالعلم ومؤتم به؛ فلا يتحقق التغيير إلى الأصلح والأقوم إلا إذا حصل بعلم يجلي حكم الشرع لما يراد تغييره، وفي

---

(٥٦) نصير، الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، ص٩٠-٩١.

(٥٧) ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، ١/٢٥٩.

(٥٨) المصدر نفسه، ١/١٨١.

هذا يقول الشيخ: "الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحتاج إلى ... أن يعرف ما يأمر به، وينهى عنه"(٥٩).

- أن العمل بالعلم يتطلب من المسلم الذي يسعى إلى الإصلاح أن يعلم أربع مسائل، وأن يلتزم بها في سعيه: "الأولى العلم، وهو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، والثانية العمل به، والثالثة الدعوة إليه، والرابعة الصبر على الأذى فيه"(٦٠).

وتجد هذه المنهجية واضحة وجلية من الناحية العملية في حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب؛ لذا تعرض بسببها للإنكار والعداوة بمجرد أن بدأ بقطع الأشجار المعظمة، وهدم القباب التي على القبور، وإقامة حد الرجم على المرأة الزانية التي تابت وطلبت منه تطهيرها(٦١)، فقابلهما بالصبر على أذى المنكرين ومظهري العداوة ماضيا في تنفيذ منهجه؛ إذ لم يرض لنفسه أن يقتصر على الانشغال بالعلم شأنه شأن كثير من أقرانه من المعنيين بالعلم وحده تحصيلا وتعليما دون اهتمام بالعمل إيثارا للسلامة الدنيوية من أذى العامة والمكابرين من أهل العلم؛ بل بدأ دعوته وهو على قناعة تامة بأن داء الأمة يكمن في عزل العلم عن العمل، وأنه لا يمكن إعادة الناس إلى منهج الإسلام القويم إلا عن طريق العمل المقترن بالعلم الذي سلكه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمصلحون.

وكان من أبرز الجوانب العملية في حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب:

- أنه في أول حياته وفي وقت لم يكن للناس من ينهاهم عن المنكر صدع الشيخ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد ذكر الشيخ عثمان بن بشر(٦٢): أنه "لما تحقق للشيخ معرفة التوحيد ومعرفة

---

(٥٩) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ٢٩٦.

(٦٠) ابن عبدالوهاب، محمد، الأصول الثلاثة وأدلتها، ص ٦.

(٦١) ابن بشر، عنوان المجد، ١/٢٣.

(٦٢) هو عثمان بن عبدالله بن بشر، مؤرخ نجد، من رؤساء قبيلة بني زيد، له مصنفات، توفي في جلاجل سنة ١٢٩٠هـ. الزركلي، الأعلام، ٤/٢٠٩.

نواقضه وما وقع فيه كثير من الناس من هذه البدع المضلة صار ينكر هذه الأشياء"، إلا أنه لم يجد رغم استحسان الناس لما يقول عونا وناصرا؛ لذا آثر أن يرحل لطلب العلم؛ ليزداد بصيرة فيما يسعى إلى تغييره وإصلاحه(٦٣).

- أنه بعد عودته من رحلته العلمية واستقراره في العيينة ظفر بنصرة أميرها عثمان بن حمد بن معمر(٦٤) فأزال ما كان فيها مُعَظَّمًا من الأشجار والمشاهد، وهدم القبب والمساجد المبنية في الجبيلة على قبور الصحابة؛ فاندرس الأمر الممنوع، وحز ما في العارض من أشجار معظمة كشجرة قريوه وأبي دجانة والذيب(٦٥).
- أنه سعى إلى تمكين الأحكام، وحمل الناس على العمل بها، ونهى عن المنكرات التي تفشت في زمنه، وفي هذا يقول في رسالة أرسلها إلى أحد علماء العراق: "ألزمت من تحت يدي بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من فرائض الله، ونهيتهم عن الربا وشرب المسكر وأنواع المنكرات"(٦٦).
- أن الشيخ استمر على هذا المسلك بعد انتقاله إلى الدرعية، يقرن العمل بالعلم "حتى أذعن أهل نجد، وتابعوا على العمل بالحق والأمر بالمعروف والنهي على المنكر،... فعمرت نجد بعد خرابها، وصلحت بعد فسادها، واجتمعت بعد فراقها، وحقنت الدماء بعد إهراقها..."(٦٧).

---

(٦٣) ابن بشر، عنوان المجد، ١/٢٠.

(٦٤) أمير العيينة، ناصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب في بدء دعوته، ثم تراجع وفارقه الشيخ متجها إلى الدرعية سنة ١١٥٧هـ، مات مقتولا سنة ١١٦٣هـ. الزركلي، الأعلام، ٤/٢٠٤.

(٦٥) ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، ٢/٢.

(٦٦) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ٣٦.

(٦٧) ابن بشر، عنوان المجد، ١/١١٥.

هذه الجوانب العملية تدل بوضوح على أمور عدة:

١ - أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب لم يكن كاتبا أو مؤلفا يعالج ما فسد من حال الناس عن طريق فكره المجرد البعيد عن الواقع، وإنما كان مصلحا يكافح بلسانه عن عقيدته، ويعمل على تغيير الأوضاع المنحرفة بيده، وبكل عقله وجهده؛ فإن من يتأمل سيرته يتبين له أن ما كان يدعو إليه ليس نظرية فحسب، أو كتابا ألفه ليقرأه الناس وكفى؛ ولكنه منهاج حياة قام وراءه يدعو إلى العمل به بالموعظة أولا ثم بالقوة ثانيا(٦٨) إلى أن تحقق له ما كان يصبو إليه من تمكين الإسلام وعلو الحق وإزهاق الباطل.

٢ - أن فكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب كان يتسم بالشمول والعمق في مجال التطبيق العملي والممارسة السلوكية في شؤون الحياة(٦٩)، فلم يترك ناحية من نواحي الإصلاح إلا عني بها، وشملتها دعوته، فله جهد كبير في إعادة بناء الجانب العقدي من جديد على التوحيد النقي من شوائب الشرك والبدع، وله أثر ظاهر في إرساء معنى العبودية الحق لله تعالى، وتقرير شموليتها، وتكريس معناها في كل جوانب الحياة، وله مساهمة بارزة في صياغة الجانب الفكري والتنظيمي للدولة الإسلامية التي قامت على أسس من الدين الحنيف، وعملت على إقامة العدل بين الناس، وحماية الأنفس والأعراض والأموال.

٣ - أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب لم يكن قانعا بالدعوة إلى الإسلام عن طريق الوعظ فقط؛ بل كان مصمما على بناء مجتمعه من جديد على صفة يتجسد فيها الإسلام بنقائه الأصيل على أنه منهج عملي في الحياة يتبع العلم الشرعي، وقد

---

(٦٨) العجلاني، منير، تاريخ البلاد العربية السعودية، ١/٢٤١.

(٦٩) الحصين، أحمد، إمام وأمير ودعوة لكل العصور، دار الطرفين، الطائف، ص ٤٥.

تمكن من تحقيق ذلك في ظل حكم الأمير محمد بن سعود(٧٠) وابنه الأمير عبدالعزيز(٧١) في عهده لما انقلبت طرق الحياة، وتغيرت المعتقدات؛ فأصبح الناس يعرفون معنى الشهادتين بعد أن كانوا يجهلونه، ويجتنبون ما ينقضهما بعد أن كانوا يفعلونه، وصاروا يلتزمون أداء الصلوات جماعة وصيام رمضان وأداء زكاة أموالهم، وامتنعوا عن تعاطي التبغ ولبس الحرير للرجال، وسرى الأمن، وأصبح كل شخص يستطيع أن يتقدم بظلامته بين يدي الحاكم، ويحاسب كل أحد على خطئه(٧٢).

٤ - أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب كان يرى من ناحية واقعية أن ارتباط العمل بالعلم أكثر تأثيرا في العقول والنفوس، وأسرع في التغيير من الاقتصار على التعليم وحده؛ فإنه كان يباشر بنفسه إزالة بعض المظاهر المنكرة، فقد ذكر الشيخ عثمان بن بشر أن الشيخ خرج بنفسه لقطع شجرة كان يعظمها العامة بالعيينة، وأنه هدم بيده القبة التي على قبر زيد بن الخطاب ﵁ في بلدة الجبيلة، حتى إن الجهلة من الناس لما رأوه يهدمها انتظروا ما يحدث له بسبب هدمها، فلما كان على أحسن حال(٧٣) علموا أن هذا القبر لا ينفع، ولا يضر. لقد وصف بركهارت هذا الأسلوب الذي اتبعه الشيخ محمد بن عبدالوهاب بأنه موفق؛ فإن من الناس من يعجز عن فهم الأقوال التي تلقى على أسماعهم؛ ولكنهم

---

(٧٠) ابن محمد بن مقرن، ولي إمارة الدرعية سنة ١١٣٩هـ، وفد عليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب فتعاهد معه على نصرة الدعوة، اتسعت إمارته، فشملت أكثر نجد، يعد المؤسس الأول للدولة السعودية، توفي بالدرعية سنة ١١٧٩هـ. الزركلي، الأعلام، ١٣٨/٦.

(٧١) ابن محمد بن سعود، ولي إمارة الدرعية بعد وفاة أبيه سنة ١١٧٩هـ، واتسع في عهده نطاق الدولة السعودية، مات مقتولا على يد رجل من أهل العراق سنة ١٢١٨هـ. الزركلي، الأعلام، ٢٧/٤.

(٧٢) جميلة، مريم، الإسلام في النظرية والتطبيق، مكتبة الفلاح، الكويت، ص ٩٧-٩٨.

(٧٣) ابن بشر، عنوان المجد، ٢٢/١.

يفهمون تماما عن طريق ما يشهدونه من أعمال بأعينهم، "فإنهم إذا كانوا يعتقدون مثلا أن قبر الولي يحميهم، ثم وجدوه غير قادر على حماية القبة المبنية على قبره، والثأر ممن هدمها آمنوا بأنهم كانوا على خطأ في الاعتقاد بقدرته على النفع والضرر، وبذلك تفعل الأعمال في إقناعهم أكثر مما تفعل الأقوال!"(٧٤).

٥ - أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب استطاع أن يسير بخطوات ثابتة نحو هدفه، وأن يجعل الناحية التطبيقية متناسقة مع فكرته الأساسية، وحياة الجماعة التي آمنت بها عنوانا صادقا لما تنطوي عليه من مبادئ، ويكفي دليلا على نجاحه في تحقيق هذا الهدف أنه لم يقع خُلْف أبدا بين المجال النظري والتطبيق العملي، ولا بين حياة الجماعة ومبادئه كما وقع ويقع في بعض الدعوات الإصلاحية(٧٥).

لقد تركت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بسبب ربطها العمل بالعلم أبعادا ثقافية في الجزيرة العربية، من أهمها ما يأتي:

- خلو المناطق التي دخلت تحت حكم الدولة السعودية من المظاهر الشركية المنافية للتوحيد، ومن الممارسات البدعية القادحة في كماله، وخضوع أفراد هذه المناطق لأحكام الشرع في نواحيهم الاجتماعية والمالية والجنائية، لا يرضون أن يُحكَموا بغيرها في دمائهم وأعراضهم وأموالهم.
- سلامة حياة الناس في الجزيرة العربية من تأثير المنهج الفلسفي المتأصل في مسلك المتكلمين الذي غالبا ما يحول مسائل التوحيد والإيمان السهلة إلى قضايا فلسفية معقدة مبنية على أقيسة منطقية(٧٦)،

---

(٧٤) العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية، ٢١٤/١.

(٧٥) الهراس، محمد خليل، الحركة الوهابية، الجامعة الإسلامية، ص ٧٣.

(٧٦) نقرة، التهامي، محمد بن عبدالوهاب ودعوته إلى التوحيد، ضمن بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ٧١.

تعرض في الذهن على شكل مناقشات سفسطائية، لا ثمرة لها في الحياة من الناحية الواقعية إلا الضياع والحيرة والتشتت؛ خلافا للمنهج الذي تبنته هذه الدعوة، وهو منهج فطري استطاع أن يحول هذه المسائل من فكر إلى عمل، ومن مسائل نظرية إلى مسائل تطبيقية، أثمرت في حياة الإنسان المسلم راحة نفسية وطمأنينة قلبية.

- مسايرة أحداث الحياة ومتغيراتها عن طريق فتح باب الاجتهاد لضبط وقائعها، وتعميق مفاهيمها، وإثرائها دائما بالفكر النقي المستمد من القرآن والسنة المطهرة، ولا ريب أن هذا يعطي على الفور الانطباع بأن العلم في خدمة الحياة بكل نواحيها(٧٧).

إنه يمكن أن توصف حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في تغيير أوضاع المجتمع وانحرافاته الفكرية بأنها انطلاقة إصلاحية بدأت من الأصول العقدية والمنابع الفكرية، ثم استمرت تعكس المفهوم الإسلامي الصحيح والغايات والقيم النبيلة على واقع الحياة في الأداء الاجتماعي والبناء الحضاري للأمة(٧٨)؛ لتجعل منهما حقيقة عملية لمعنى الإسلام الشامل؛ ولعل هذا هو سر بقائها وامتداد عطائها العقدي والفكري، وسبب تفوقها على كثير من الحركات الإصلاحية، يقول الدكتور محمد خليل الهراس: "لا تعرف حركة إسلامية كانت أمينة على مبادئها، وملتزمة بها في مجال التطبيق مثل الحركة الوهابية، ولعل هذا هو الذي ضمن لها البقاء والرسوخ، فقد أصبحت منهج فكر وخطة حياة وجزءا من كيان المؤمنين بها"(٧٩).

---

(٧٧) نصير، الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، ص ٨٧.

(٧٨) أبو سليمان، عبدالحميد أحمد، أزمة العقل المسلم، المعهد العالي للفكر، ص ٩٩.

(٧٩) الهراس، الحركة الوهابية، ص ٦٩.

الارتقاء بالإنسان عن طريق التعليم

إن تبني الشيخ محمد بن عبدالوهاب منهجية الربط بين العلم والعمل اقتضى منه أن يستهدف أمرين:

الأمر الأول: محو الأمية وإزالة أسباب الجهل؛ لأنه لا يبنى عمل صحيح إلا على علم صحيح، ولأن هذا العلم هو السبيل الوحيد لبناء الإنسان المؤمن، وتنمية ما لديه من قدرة على التفكير والإدراك والإبداع؛ لتتم إفادته من معطيات العلم، ولا سيما الديني منه في جميع جوانب الحياة، ولأنه الطريق القويم الذي يَسهُل من خلاله مخاطبة العقل، وبناء الفهم الناضج، والتمييز بين الصحيح من الأمور أو سقيمها.

الأمر الآخر: إصلاح منهج التعليم السائد وتطويره؛ لأنه لا يمكن إيجاد عمل متجدد ومتواصل في ظل استمرار الركود العلمي والجمود الفكري ما لم يكن العلم قادرا على صياغة العقل من جديد وفق هدي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومهيئا لبناء انطلاقة فكرية تأخذ بالثوابت وتساير المتغيرات المباحة، وتمكن الأمة من تجسيد فكرها، وتنظيم حياتها، والانتفاع من معطيات العلم الشرعي والتطور الحضاري.

لا يمكن إيجاد عمل متجدد ومتواصل في ظل استمرار الركود العلمي والجمود الفكري

لقد آمن الشيخ بأن مسؤولية التعليم مناطة بالعلماء الذين أمروا بالتبليغ وتفقيه الناس بأمور دينهم، ونهوا عن كتمان العلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠]، وأيقن أنه لزاما عليه وهو في سلكهم أن يجند نفسه لتعليم الناس وتبصيرهم بأمور دينهم بعد أن تبين له أن تفشي الجهل، ومظاهر الأمية، وانحراف الناس عن

العقيدة الصحيحة والدين القويم، والركود في النواحي العلمية، والجمود في النواحي الفكرية له انعكاسات ناتجة عن أمرين:

الأمر الأول: قلة الجهود المبذولة من العلماء نحو إشاعة العلم ونشره بين الناس؛ مما أدى إلى ارتفاع نسبة الجهل والأمية، وانحصار التعليم في فئة قليلة من أبناء القادرين من الناحية المالية على تحمل أعباء نفقات الحياة.

الأمر الآخر: جمود العلماء على إرث الماضين دون محاولة إحداث أدنى تغيير في منهجية التعليم السائدة التي تقوم على تكرار متون بعض العلوم وتردادها، وإغلاق باب الاجتهاد اكتفاء بأقوال العلماء السابقين واجتهاداتهم، ودون محاولة تجديد لهذه المنهجية بما يساير تطورات الحياة، ويعالج مشكلاتها؛ مما أدى إلى انعزال العلم الشرعي عن التأثير في توجيه الناس وتنظيم شؤون الحياة.

إن فقه الشيخ محمد بن عبدالوهاب للحالة العلمية هو الذي حمله على الاهتمام بالتعليم، ودفعه إلى اتخاذه أساسا ينطلق منه في دعوته وإصلاحه؛ إذ بدونه لا يمكن أن يُحَرَّر الإنسان من لوثات الشرك والخرافة، ويُرْتَقَى به إلى مدارج الإيمان والتوحيد، فمن كان أعلم بالله وبصفاته وأفعاله كان أخشى له، وأتقى(٨٠)، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ [**فاطر**: ٢٨]؛ لهذا جعل الشيخ من حِلَق العلم ومدارسه منبرا لمكافحة الجهل ومحاربة الأمية، ومن إشراع باب الاجتهاد أمام القادرين عليه، والتشجيع على التزود من كل العلوم والمعارف المباحة سبيلا للاستضاءة بنور العلم في كل مجالات الحياة ودروبها.

---

(٨٠) البيضاوي، ناصر الدين عبدالله بن عمر، تفسير البيضاوي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٣/٤٢٤.

جهود الشيخ محمد بن عبدالوهاب في محو الأمية وإزالة الجهل بالدين:

صدع الشيخ بدعوته في زمن كثر فيه الجهل بين الناس، وظهرت آثاره السلبية على عاداتهم وأفكارهم، ولعل الصورة الاجتماعية التي سجلها الشيخ عثمان بن بشر أكثر دلالة على ما بلغه الناس في نجد من سوء الاعتقاد وانحطاط الفهم؛ إذ يقول: "إن الأعراب إذا نزلوا في البلدان وقت الثمار صار معهم رجال ونساء يتطببون ويداوون؛ فإذا كان في أحد من أهل البلد مرض أو في أعضائه جاء أهله إلى متطببة ذلك القطين من البادية، فيسألونهم عن ذوي علته، فيقولون لهم: اذبحوا في الموضع الفلاني كذا وكذا؛ إما تيسا أصمع أو خروفا بهيما أسود؛ وذلك ليحققوا معرفتهم عند هؤلاء الجهلة، ثم يقولون: لا تسموا الله على ذبحه، أعطوا المريض منه كذا وكذا، وكلوا كذا وكذا، فربما يشفي الله مريضهم فتنة لهم واستدراجا، وربما يوافق وقت الشفاء حتى كثر ذلك في الناس وطال عليهم الأمد، فوقعوا في عظائم... بسبب الجهل، وليس للناس من ينهاهم عن ذلك"(٨١).

لم يكن أمام الشيخ من سبيل إلى إنقاذ هؤلاء الجهال من الشرك وتخليصهم من الخرافات والبدع إلا عن طريق تبديد ظلمة الجهل ونشر العلم بين الناس؛ لذا بادر - بمجرد أن استقر بالدرعية، وشعر أنه قد أوى إلى ركن شديد، وظفر بنصرة الأمير محمد بن سعود - إلى إقامة حلقات العلم؛ لتعليم الناس القراءة والكتابة ومبادئ الدين، وعقد العزم على أن يباشر بنفسه تعليم الجهال أمور دينهم، وكان أول ما فعل أن اتخذ من داره التي كان يسكنها في الدرعية مدرسة يعلم فيها الناس جوهر الدين ومعنى التوحيد وأحكام الإسلام؛ فلما ضاقت من كثرة الدارسين والوافدين من البلدان المجاورة، وأصبحت لا تتسع لمثل هذه الأعداد الغفيرة من المتعلمين ومستمعي الوعظ والإرشاد، أشار على الأمير محمد بن سعود أن يبني مسجدا كبيرا

---

(٨١) ابن بشر، عنوان المجد، ١/١٩-٢٠.

يتسع لجميع أهل الدرعية لأداء الصلاة، واستماع دروس العلم والوعظ، وبعد الفراغ من بنائه انتقل إليه الشيخ، وواصل فيه تدريس طلابه، وإلقاء مواعظه، وتعليم الناس التوحيد(٨٢).

وساعد توفر مكان للتعليم على ارتفاع عدد الوافدين إلى الدرعية - تلك القرية الصغيرة ذات العدد القليل من السكان - التي تحولت إلى مدينة كبيرة يفد إليها الناس من كل مكان، يتعلمون فيها على الشيخ، ويسألونه أمور الدين، وقد جعل الشيخ محمد بن عبدالوهاب جل اهتمامه في دروسه ومواعظه على المسائل الضرورية من الدين ولا سيما ما يتعلق بالتوحيد وإخلاص العبادة لله، يرسخها في النفوس(٨٣)، ويزيل منها ما قد علق بها من شوائب الخرافات والبدع، واهتمامه هذا "ليس... غريبا؛ لأن جوهر دعوته تصحيح العقيدة وتحقيق التوحيد"(٨٤)، ولأنه بان له أن عدم الفهم في أكثر الناس يرجع إلى عدم الحرص على تعلم الدين، وهذا من أعظم الأسباب الموجبة للجهل(٨٥).

واتبع الشيخ مسلكا "يلزم كل أتباعه تعلم القراءة والكتابة مهما كانت سنه، ومهما كانت منزلته؛ حتى الأمراء كانوا يقرؤون مثل بقية الناس، فصار منهم المدرسون كالإمام سعود الكبير(٨٦)، فإنه كان له درس يلقيه في التوحيد فوق أعمال الإمارة، وكان تعليمه إياهم الكتابة في القرآن وحفظه ... ثم وضع الرسائل ذات العبارة السهلة القريبة

---

(٨٢) خزعل، حسين خلف، حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص١٦٢-١٦٣.

(٨٣) الندوي، مسعود، محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم، مطبعة زمزم، ص ٥٥.

(٨٤) العريني، عبدالرحمن بن علي، الشيخ محمد بن عبدالوهاب وبعض الجوانب التربوية والتعليمية في دعوته، بحوث من أعلام التربية العربية الإسلامية، مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي، ٢١٧/٤.

(٨٥) ابن عبدالوهاب، مفيد المستفيد، ص ٢٨٤.

(٨٦) ابن عبدالعزيز بن محمد بن سعود، تولى حكم الدولة السعودية الأولى بعد مقتل أبيه سنة ١٢١٨هـ، جند جيشا كبيرا أخضع به معظم جزيرة العرب، توفي في الدرعية سنة ١٢٢٩هـ. الزركلي، الأعلام، ٣/ ٩٠.

إلى عقول البسطاء في بيان التوحيد وما يحققه ويقويه، وما يهدمه وينقضه من الاعتقاد والقول والعمل، وكان اعتماده في مؤلفاته... على الكتاب العزيز والسنة الصحيحة، وكان يلزم الناس أن يحفظوا القرآن، ثم يطالعوا هذه الرسائل ويحفظوها، ولا ريب أن ذلك من أقوى الأسباب التي أدت إلى انتشار دعوته، وسرعة انتقالها إلى ما وصلت إليه من بقاع الأرض"(٨٧).

ولئن كانت صعوبة تأمين لقمة العيش عائقا من قبل عن طلب العلم والترقي في درجاته فإن قوة العزائم التي كان يشحذها الشيخ في دروسه ويشجع أصحابها على مواصلة طلب العلم جعلت هؤلاء الطلاب الراغبين في حضور دروس الشيخ "بالليل يحترفون، ويأخذون الأجرة، وفي النهار يجلسون عند الشيخ في درس الحديث والمذاكرة إلى أن أتاه الله بالرزق الواسع بعد الشدة والامتحان"(٨٨)، فوسع على هؤلاء.

ولم يكن اهتمام الشيخ قاصرا على الشباب المتفرغين لطلب العلم، بل أولى عناية خاصة بتعليم العامة، وتعريفهم أحكام الدين وواجباته من الذين كبرت سنهم أو شغلتهم أعباء الحياة وقلة ذات اليد والإنفاق على العيال عن التفرغ للتعلم(٨٩)، فكان من عنايته بهم أن جعل لهم منهجا دراسيا يلائمهم، ذكر الشيخ عثمان بن بشر أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب "أمر... جميع أهل البلدان من أهل النواحي يسألون الناس في كل مسجد كل يوم بعد صلاة الصبح أو بين العشاءين عن معرفة ثلاثة الأصول، وهي معرفة الله، ومعرفة دين الإسلام ومعرفة أركانه وما ورد عليها من الأدلة من القرآن، ومعرفة محمد ﷺ ونسبه ومبعثه وهجرته وأول ما دعا إليه، وهي لا إله إلا الله، ومعرفة معناها

---

(٨٧) الفقي، محمد حامد، أثر الدعوة الوهابية في الإصلاح الديني والعمراني، ص ٦-٧.

(٨٨) ابن بشر، عنوان المجد، ١/١٥.

(٨٩) العيسى، مي بنت عبدالعزيز، الحياة العلمية في نجد، دارة الملك عبدالعزيز، ص ٢٨٠.

والبعث بعد الموت وشروط الصلاة وأركانها وواجباتها وفروض الوضوء ونواقضه، وما يتبع ذلك من تحقيق التوحيد من أنواع العبادة التي لا تبتغي إلا لله سبحانه كالدعاء والخوف والرجاء والذبح والنذر والخشية والرغبة والتوكل والإنابة وغير ذلك". وذكر ابن بشر أيضا أن الشيخ "أخذ من شرح الإقناع نبذة في أحكام الصلاة والزكاة والصيام، من باب آداب المشي إلى الصلاة إلى باب ما يفسد الصوم، وأمر بالقراءة فيها، وتعليم العامة ما يلزمهم معرفته من أحكام صلاتهم وصيامهم"(٩٠)، وذكر الدكتور عبدالله العثيمين أن للشيخ رسالة مختصرة جدا، اسمها (أحكام الصلاة) كتبها للعامة؛ ليتعلموا أحكام الصلاة الضرورية من فروض الوضوء ونواقضه وشروط الصلاة وأركانها وواجباتها ومبطلاتها(٩١).

ولئن ظفر الرجال بالنصيب الأسد من الدروس ومجالس الوعظ، فإن النساء لم يحرمن من العلم والانتفاع من تعلم رسائل الشيخ؛ فقد مُكِّنَّ من حضور الدروس في بعض الأوقات، وأخذن قسطهن من العلم، فقد ذكر الشيخ عبدالرحمن بن حسن(٩٢): أنه جُعِل للنساء مكان في المجمع الذي بني حول مسجد البجيري بالدرعية، يستمعن فيه ما يقرأ على الرجال في نسخ التوحيد بعد صلاة الصبح(٩٣).

ولما كانت دعوة الشيخ عامة، لا تخص إقليم نجد وحده فقد امتد اهتمامها العلمي لِيَبْلُغ من كانوا في البلدان الأخرى التي خضعت

---

(٩٠) ابن بشر، عنوان المجد، ١/١١٥-١١٦.

(٩١) العثيمين، عبدالله، الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره، دار العلوم، الرياض، ص١٠.

(٩٢) هو حفيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولد بالدرعية سنة ١١٩٣هـ، تتلمذ على جده ومن بعده على علماء الدرعية، انتقل إلى مصر بعد سقوط الدرعية واستيلاء إبراهيم باشا عليها، ثم عاد إلى نجد بعد استعادتها على يد الإمام تركي بن عبدالله آل سعود مؤازرا الإمام، وعاملا على نشر الدعوة السلفية إلى أن توفي في مدينة الرياض سنة ١٢٨٥هـ. آل الشيخ، مشاهير علماء نجد، ص ٧٨.

(٩٣) ابن قاسم، الدرر السنية، ١٤/٨٧.

للدرعية، فقد أرسل إليهم الشيخ بعض تلامذته النابهين؛ ليعلموهم التوحيد وأحكام الدين وشرائع الإسلام، فكان ممن أرسل عيسى بن قاسم(٩٤) إلى الرياض سنة ١١٦٧هـ(٩٥)، وحمد بن سويلم(٩٦) إلى أهل ثادق سنة١١٧٠هـ(٩٧)، وحمد بن راشد العريني(٩٨) إلى أهل اليمامة سنة ١١٩٠هـ(٩٩).

لذا يمكن القول: إن جهود الشيخ محمد بن عبدالوهاب في محاربة الجهل كانت أشبه بالحملة الثقافية في عطائها وآثارها، وبالمدرسة التربوية في أسلوبها وطريقتها؛ فقد استطاع من خلالها أن يخفض نسبة الأمية التي كانت مرتفعة في ذلك الوقت، وأن يهيئ كل الأماكن التي تصلح لاجتماع الطلاب لتكون دورا للتعليم من مساجد ومساكن وقصور؛ حتى بلغ عدد دور التعليم في الدرعية وحدها كما يذكر أحد المؤرخين الفرنسيين ثلاثين دارا علاوة على المساجد، مما أوجد فرصا متساوية أمام قاصدي التعليم وطالبيه(١٠٠)، وأن ينشر العلم ليصل إلى كل فئات المجتمع بما يتلاءم مع مستوياتهم، وأن يحول الدرعية إلى جامعة كبيرة مشرعة الأبواب أمام كل راغب في طلب العلم والتزود من فنونه.

---

(٩٤) من أهل الدرعية، ناصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب بعد قدومه، توفي سنة ١٢٠٣هـ. ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، ٢/٤، ١٤٢. ابن بشر، عنوان المجد، ٤٣/١.

(٩٥) ابن بشر، عنوان المجد، ٤٣/١.

(٩٦) معلم، أرسله الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى أهل ثادق يعلمهم التوحيد، ويفقههم في الدين، ولم أجد له ترجمة. ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، ٥٠/٢. ابن بشر، عنوان المجد، ٤٨/١.

(٩٧) ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، ٥٠/٢.

(٩٨) رحل من بلده إلى الدرعية لأخذ العلم من الشيخ محمد بن عبدالوهاب وغيره من علماء الدرعية، وعمل قاضيا للإمام عبدالعزيز بن محمد في سدير، وتوفي بها في آخر ولاية سعود. البسام، علماء نجد، ٧٣/٢.

(٩٩) ابن بشر، عنوان المجد، ٨٢/١.

(١٠٠) العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية، ١٦٢/٣.

واستمر عطاء الدعوة العلمي حتى بعد وفاة الشيخ محمد بن عبدالوهاب؛ إذ سار أبناؤه على خطاه في الاهتمام بالعلم وتيسيره لطلابه، فقد ذكر الشيخ عثمان بن بشر أنه رأى لأبناء الشيخ الأربعة حسين(١٠١) وعبدالله(١٠٢) وعلي(١٠٣) وإبراهيم(١٠٤) مجالس ومحافل في التدريس في بلد الدرعية، وعندهم طلبة علم من أهل الدرعية ومن أهل الآفاق من صنعاء وزبيد وعمان وغيرهم من نواحي نجد، وقد كان لهم من المعرفة ما فاقوا به أقرانهم، ولكل واحد منهم قرب بيته مدرسة فيها طلبة علم يأخذون عنهم في كل وقت، ونفقتهم جارية من بيت المال(١٠٥).

إصلاح منهج العلماء في التعليم:

إن الحالة العلمية في الفترة الزمنية التي قامت فيها دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانت تستدعي إصلاح منهج العلماء في التعليم من جانبين، هما:

الجانب الأول: الاهتمام بتنوع العلوم الشرعية والعربية بدلا من الاقتصار على علم الفقه ومسائله، فقد ذكر الشيخ عبدالله البسام أنه كان "يوجد في بلدان نجد فقهاء وعلماء في ذلك الزمن وقبله

---

(١٠١) ولد بالدرعية، ونشأ بها، تعلم على والده، توفي سنة ١٢٢٤هـ. آل الشيخ، مشاهير علماء نجد، ص ٤٣.

(١٠٢) خلف والده في مؤازرة الأمير عبدالعزيز بن محمد، أوقف حياته على نشر العلم والتأليف فيه، كان مرجع القضاة في عهد الأمير عبدالعزيز وابنه الإمام سعود، نقله إبراهيم باشا إلى مصر بعد استيلائه على الدرعية، وتوفي فيها سنة ١٢٤٢هـ. آل الشيخ، مشاهير علماء نجد، ص ٤٨.

(١٠٣) ولد بالدرعية، ونشأ بها، تعلم على والده، كان عالما ورعا، نقله إبراهيم باشا إلى مصر بعد استيلائه على الدرعية، وتوفي فيها. آل الشيخ، مشاهير علماء نجد، ص ٧٠.

(١٠٤) ولد بالدرعية، ونشأ بها، تعلم على والده، اشتغل بالتدريس، نقله إبراهيم باشا إلى مصر بعد استيلائه على الدرعية، وتوفي فيها. آل الشيخ، مشاهير علماء نجد، ص ٧٢.

(١٠٥) ابن بشر، عنوان المجد، ١١٧/١.

بقرون متطاولة إلا أن جل اهتمامهم بالفقه والمسائل الفرعية، فهم مقتصرون على بحث مسائل الفقه، وتحريرها، وتحقيقها، وحفظ متونها، واستيعاب شروحها وحواشيها، أما العلوم الشرعية الأخرى فنصيبهم فيها قليل، فليس هناك عناية بالتوحيد وتحقيقه، ولا بالتفسير، ولا بالحديث وشروحه، بل حتى العلوم العربية لا يهتمون بها إلا بما يقوم اللسان"(١٠٦)، وعلل الدكتور عبدالله العثيمين سبب اقتصارهم على الفقه؛ لأنه المؤهل للقضاء الذي يعد في ذلك الزمن وظيفة مرموقة من الناحية الاجتماعية(١٠٧).

الجانب الآخر: العناية بدراسة نصوص القرآن والسنة والاستدلال بها، وأخذ الأحكام مباشرة منهما، ولا سيما بعد أن تفشى الجهل بين الفقهاء بالنصوص الشرعية، وجمدوا على مختصرات كتب الفقه التي تكاد تخلو من الدليل أو التعليل، وقد بالغ هؤلاء في تعظيم هذه المختصرات وتقليد مؤلفيها حتى صاروا لا يأخذون الحكم الشرعي إلا منها، ولا يقبلون من الأحكام ما يخالفها، بحجة أنهم غير مؤهلين لأخذها مباشرة من الكتاب والسنة، وأن أئمتهم أعلم منهم، وقد اختاروا لهم هذه الكتب فلا يتعدونها إلى غيرها من الكتب التي تعنى بالدليل الشرعي(١٠٨).

إن هذا المنهج يعد غير مؤهل لتحقيق ما كان يصبو إليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب من وراء دعوته؛ لما يؤخذ عليه من انطوائية على بعض العلوم واتكاء على التقليد المحض والجمود على إرث الماضين، ولما يتصف به من صفات سلبية تقصر عن البلوغ بالشيخ إلى غاياته النبيلة والطموحة التي كان يسعى إليها حثيثا للارتقاء بالإنسان عن طريق التعليم في كل جوانبه، والنهوض بالمجتمع الذي

---

(١٠٦) البسام، علماء نجد، ١/١٣٠.

(١٠٧) العثيمين، الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ١٨-١٩.

(١٠٨) العجلان، حركة التجديد والإصلاح، ص ٧١.

عانى كثيرا من حالة الجهل المستشري والركود العلمي والجمود الفكري، ويعوق بذلك الشيخ عن تحقيق هدفه في سبيل محو الأمية، وإزالة آثارها من المجتمع، ومحاربة الجهل بكل مظاهره، وبث الوعي الشرعي والفكري بين الناس، وبخاصة المتعلمون، والتوسع في النهل من شتى العلوم والمعارف المباحة، واستثمار قدرات العقل في تجديد مناهج التعليم وتطوير أساليبه، والمشاركة في التقدم العلمي والحضاري.

لقد كان من جوانب إصلاح الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتجديده لمنهجية التعليم:

اهتمامه البالغ بعلم التوحيد:

فقد أدرك الشيخ أن واقع الحال يقتضي تبصير الناس بحقيقة توحيد الله تعالى في العبادة، وتصحيح المفاهيم الخاطئة المتصلة بالعقيدة، وإزالة المظاهر الشركية والممارسات البدعية القائمة التي تعلق الناس بها تقربا إلى الله تعالى، ظنا منهم أنها من شعائر الدين الحنيف(١٠٩)، وأن ذلك لا يتحقق إلا بالرجوع إلى طريق السلف الأول ومسلكهم، الذين كانوا يأخذون دينهم من النصوص الشرعية التي هي أيسر السبل وأوضح المناهج(١١٠) من غير تكلف ولا تنطع؛ لذا أولى الشيخ اهتمامه بعلم التوحيد وبيان مفهومه وما يضاده من الشرك، وما يتعلق بهما؛ لسببين:

السبب الأول: لتخليص الدين مما دخل عليه من غريب الأفكار وما اتصل به من آراء ومعتقدات باطلة(١١١).

السبب الآخر: لتقويم الأساس الفكري في شخصية الإنسان وتهذيبه بما يتسق مع الغاية من خلقه، وهي تحقيق عبوديته لله تعالى.

---

(١٠٩) البسام، أحمد بن عبدالعزيز، الحياة العلمية في نجد، رسالة دكتوراه، ص ٢٧٣.

(١١٠) الخطيب، عبدالكريم، محمد بن عبدالوهاب العقل الحر والقلب السليم، دار الكتاب العربي، مصر، ص ٦٠.

(١١١) المرجع نفسه، ص ٦٠.

وكانت عناية الشيخ محمد بن عبدالوهاب بهذا العلم من جوانب عدة:

١ - من جانب التعليم: فقد ذكر الشيخ عثمان بن بشر أن الشيخ لما استوطن الدرعية، "ورأى ما وقعوا فيه من الشرك الأكبر والأصغر... جعل يتخولهم بالتعليم والموعظة الحسنة، ويفهمهم معنى لا إله إلا الله، ويشرح لهم معنى الألوهية، وأن الإله هو الذي تألهه القلوب محبة وخوفا ورجاء، وأن الإسلام هو الاستسلام لأمر الله تعالى والانقياد له، والإذعان بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، ويعلمهم أصول الدين والإسلام وقواعده، ومعرفة نبيهم ﷺ ونسبه ومبعثه، وما دعا إليه، وهي لا إله إلا الله وما تضمنته، وأنهم مبعوثون بعد الموت... وأنه كاتب أهل البلدان بذلك رؤساءهم وقضاتهم"(١١٢).

٢ - من جانب التأليف: يبدو أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب رأى أن الكتابات المتوافرة في التوحيد لا تفي بتحقيق الهدف الأساس من دعوته، وهي بيان حقيقة التوحيد الصحيح، وما يضاده من الشرك؛ لذا عني بتأليف عدد من الكتب في هذا الموضوع(١١٣)، من أبرزها كتاب التوحيد الذي يعد المحور الأساس الذي دارت حوله غالب مؤلفاته في العقيدة، وقد لقي هذا الكتاب رواجا عند ظهوره، وهذا يدل على أهميته وحاجة الناس إليه(١١٤)، ومن مؤلفاته في هذا الموضوع "كشف الشبهات" و"مفيد المفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد"، وهما في الرد على خصومه، وله رسائل قصيرة في هذا العلم، وقد حققت الغاية منها، منها

---

(١١٢) ابن بشر، عنوان المجد، ١/٢٦. وانظر الألوسي، محمود، تاريخ نجد، دار المعالي، عمان، ص ١٦٣.

(١١٣) البسام، الحياة العلمية في نجد، ص ٢٧٣.

(١١٤) العثيمين، الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ٨٢-٨٣.

رسالة "الأصول الثلاثة وأدلتها"، و"أربع قواعد للدين" إلى غير ذلك من الرسائل، التي تتسم بسهولة الأسلوب، راعى فيها مستوى المبتدئين والعامة من الناس، وتخلو من تكلفات المتكلمين ومصطلحات الصوفية، وتتصف بالحيوية والتأثير، والسبب يعود - كما يذكر الأستاذ مسعود الندوي - إلى ذلك "الشعور الديني الوقاد الذي كان يقض مضجعه طوال حياته، حيث استطاع به أن يغير أحوال نجد وما حوله رأسا على عقب في لمحة خاطفة، وبالجملة فإن جميع مؤلفاته الصغيرة والكبيرة مملوءة من هذا التأثير، ويظهر هذا أشد وأكثر في رسائله"(١١٥).

التجديد في المنهج الفقهي:

سلك الشيخ مسلكا جديدا في تناول المسائل الفقهية إذا ما قورن بمسلك معاصريه، يقوم على أمرين:

الأمر الأول: تقديم العمل بالنص على تقليد المذهب، فعلى الرغم من أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب كان متبعا لمذهب الإمام أحمد(١١٦)، فإنه لم يكن متعصبا له، يقول الشيخ حسين بن غنام مبينا منهج الشيخ الفقهي: "التزم مذهبا فلا يقدمه على النص القاطع، ولا يتعصب، بل إن لم يلق من النصوص القاطعة دليلا لم يتخذ غيرها سبيلا، ولكنه يختار من هو إلى الدليل أقرب، ومن الأقوال ما هو أصوب، ومن الحكم ما هو أوفق بالشريعة وأنسب"(١١٧)، وهذا المنهج لم يكن الشيخ محمد بدعا فيه؛ وإنما هو منهج من سبقه من علماء السلف، وفي مقدمتهم الإمام الشافعي الذي أوصى باتباع الدليل إذا خالف قوله، فقد قال: "لابد أن تجدوا عني ما يخالف الحديث، فكل

---

(١١٥) الندوي، محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم، ص ١٦٥.

(١١٦) ابن حنبل الشيباني، انتهت إليه إمامة الحديث والفقه، وإليه ينسب مذهب الحنابلة، دافع عن السنة، وابتلي في سبيلها، توفي سنة ٢٤١هـ. الخطيب، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤١٢/٤.

(١١٧) ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، ٣٨/١.

ما خالفه أشهدكم أني قد رجعت عنه"(١١٨)، وقد تأثر في هذا الاتجاه بمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ونزعتهما الاجتهادية، وتشبع بمنهجهما أسلوبا وفكرا، وقد ظهر أثر هذا في اعتداده بأقوالهما غالبا، واستنارته بآرائهما، وتحرير فكره، وتوجيه حياته ومنهج دعوته، وبدا هذا واضحا في مؤلفاته وآرائه في الأصول والفروع(١١٩)، والتي أكثر فيها من النقل عنهما بشكل ملحوظ(١٢٠).

لكن هذا لا يعني أنه كان يسلك معهما مسلك التقليد المطلق، وهو الذي حاربه، ووجد في مؤلفاتهما ما يشجعه ويؤازره، وقد أوضح هذا ابنه الشيخ عبدالله قائلا: "إن الإمام ابن القيم وشيخه إماما حق من أهل السنة، وكتبهم عندنا من أعز الكتب؛ إلا أنا غير مقلدين لهم في كل مسألة، فإن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا نبينا محمد ﷺ، ومعلوم مخالفتنا لهما في عدة مسائل، منها: طلاق الثلاث بلفظ واحد في مجلس؛ فإنا نقول به تبعا للأئمة الأربعة، ونرى الوقف صحيحا، والنذر جائزًا، ويجب الوفاء به في غير معصية"(١٢١). إذًا كان منهج الشيخ واضحا، يقوم على أساس احترام العلماء؛ لكن لا يقدم على النص قول أحد منهم، فهو - كما ذكر حفيده الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن - "لا يرى ترك السنن والأخبار النبوية لرأي فقيه ومذهب عالم خالف ذلك باجتهاده؛ بل السنة أجل في صدره وأعظم عنده من أن تترك لقول أحد كائنا من كان"(١٢٢)، وهو

---

(١١٨) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ٢٥٧.

(١١٩) الشبل، عبدالله بن يوسف، الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته ودعوته، مطبعة جامعة الإمام، ص ١٧. أبو سليمان، عبدالوهاب بن إبراهيم، خصائص التفكير الفقهي عند الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ضمن بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب، مطبعة جامعة الإمام، ص ٣٩٠.

(١٢٠) السلمان، محمد بن عبدالله، دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأثرها في العالم الإسلامي، دار البخاري، القصيم، ص ٢٦.

(١٢١) ابن قاسم، الدرر السنية، ١/٢٤٠.

(١٢٢) ابن سحمان، سليمان، الهدية السنية والتحفة النجدية، مكتبة التوفيق، ص ٧٩.

بهذا المنهج لم يعلق في رقبته ربقة تقليد الإمامين ابن تيمية وابن القيم، وإن كان يقتدي بهما، ويأخذ كثيرا بأقوالهما متى وافقا الكتاب والسنة حسب علمه(١٢٣).

الأمر الآخر: احترام الفقهاء وتوقيرهم ولو أخطؤوا دون تقديس لأقوالهم، وفي هذا يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب: "ينبغي للمؤمن أن يجعل همه ومقصده معرفة أمر الله ورسوله ﷺ في مسائل الخلاف والعمل بذلك، ويحترم أهل العلم، ويوقرهم ولو أخطؤوا؛ لكن لا يتخذهم أربابا من دون الله... أما اطراح كلامهم، وعدم توقيرهم فهو طريق المغضوب عليهم، وأما اتخاذهم أربابا من دون الله إذا قيل لهم: قال الله، قال رسوله، قيل: هم أعلم منا، فهذا هو طريق الضالين"(١٢٤)؛ لذا حذرت الدعوة من التعصب في تقليد المذاهب من غير نظر إلى الحجة من الكتاب والسنة لما جعل هؤلاء المقلدون آراء الأئمة وأقوالهم أصولا لمسائل الدين، وتركوا الاحتجاج بالكتاب والسنة، وسدوا بابهما(١٢٥).

التهيئة لتعلم كل العلوم المباحة:

استطاعت هذه الدعوة أن تهيئ العقول والنفوس التي اعتادت الاقتصار على علم الفقه للإقبال على تعلم العلوم الأخرى كالتفسير والحديث والنحو والصرف والسير، وتبدي حرصها وعنايتها بها، يقول الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد: "نستعين على فهم كتاب الله بالتفاسير المتداولة المعتبرة... ونحرص على كتب الحديث، خصوصا الأمهات الست وشروحها، ونعتني بسائر الكتب في سائر الفنون أصولا وفروعا وسيرا ونحوا وصرفا وجميع علوم الأمة. وقد بين أن

---

(١٢٣) الندوي، محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم، ص ١٨١.

(١٢٤) ابن عبدالوهاب، محمد، مختصر السيرة والفتاوى، القسم الثالث، ضمن مؤلفات الشيخ، جامعة الإمام، ص ٩٧.

(١٢٥) ابن قاسم، الدرر السنية، ١٧/٤.

الدعوة لم تمتنع عن شيء من العلوم إلا ما يحصل بسببه خلل في العقائد كعلم المنطق، فإنه حرمه جمع من العلماء"(١٢٦).

ومن يتأمل سير علماء الدعوة ابتداء من الشيخ محمد بن عبدالوهاب يتضح له أنهم أقبلوا في بدايات حياتهم العلمية على تعلم العلوم الشرعية المتوافرة في زمنهم(١٢٧)، وعلموها للناس بعد أن جلسوا للتعليم؛ لذا يمكن القول بأن التعليم منذ ظهور هذه الدعوة كان يرتكز على تعليم العلوم الشرعية وما يتصل بها؛ لكن لا نجد في تراث الدعوة ما يدل على منع تعلم العلوم الحديثة، والاستفادة منها متى كانت مأمونة من الضرر في العقائد والمفاهيم، غير مزاحمة لتعلم العلوم الشريعة، ولا مضعفة من شأنها(١٢٨)، ودعوى أن الشيخ كان خصما لهذه العلوم باطلة؛ فإن أحدا لا يستطيع أن يدلي بحجة في أن الشيخ منع الناس أن يتعلموا ما ينفعهم، ويرفع شأنهم في دنياهم من علوم الدين والدنيا(١٢٩).

ولعل من أبرز ما قدمته هذه الدعوة في سبيل الارتقاء بالإنسان وتنمية قدراته العلمية، والانفتاح بفكره وذهنه ما يأتي:

- نورت الإنسان بالعلم بعد أن كان يتخبط في ظلمات من الجهل والأمية، وفَتَّحَت مداركه، وزادت من وعيه، ووسعت فهمه، وارتقت

---

(١٢٦) المصدر نفسه، ١/٢٢٨.

(١٢٧) من هؤلاء الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد، فقد ذكر الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ في ترجمته أنه "تفقه في المذاهب الإسلامية، ومهر في علمي الفروع والأصول، وكان مع هذا عالما بارزا في علم التفسير والعقائد وأصول الدين، عارفا بالحديث ومعانيه، وبالفقه وأصوله وعلم النحو واللغة، وله اليد الطولى في جميع العلوم والفنون". آل الشيخ، عبدالرحمن بن عبداللطيف، الشيخ عبدالله ابن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الخامسة، ربيع الثاني عام ١٤٠٠هـ، ص ٦.

(١٢٨) ابن قاسم، الدرر السنية، ١٦/١٦.

(١٢٩) سيد الأهل، عبدالعزيز، داعية التوحيد محمد بن عبدالوهاب، دار العلم للملايين، ص ١٢٣.

به في مدارج العلم، فقد أطلعته على علوم جديدة لم يكن عهدها من قبل، فهي بهذا الصنيع استطاعت أن ترفع عن الإنسان غشاوة الجهل لما حاربت الأمية بكل ما أوتيت من قوة وأسباب(١٣٠)، وهيأت أسباب العلم لكل طالب.

- نجحت في تهيئة كل الأسباب المعينة على طلب العلم، منها إقامة حلقات العلم، وإنشاء المدارس، ومساعدة المتعلمين على تأمين ما يلزمهم؛ ليتفرغوا لطلب العلم(١٣١) إلى درجة أن الشيخ كان يستدين من أجل مساعدة هؤلاء على تلقي العلم(١٣٢)؛ فكان من أبرز مؤشرات هذا النجاح أن أصبحت الدرعية بمجرد استقرار الشيخ فيها قاعدة العلم في نجد، وأكثر مراكزها العلمية استقبالا للوافدين لطلب العلم(١٣٣).
- حررت طالب العلم من ربقة التقليد وإلف الجمود على كتب العلماء المتقدمين ومختصراتهم التي كان يأخذ الأحكام الشرعية منها، ولا يقبل إلا ما وافقها؛ فصار لا ينقاد إلا للقرآن والسنة، وأصبح يأخذ الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية مباشرة، ويقدم دلالتها على أقوال العلماء متى بان له الصواب في خلافها، وقد أعادت هذه المنهجية للنصوص من الكتاب والسنة مكانتها واحترامها، فصارت حاكمة على أقوال العلماء التي قد يعرض لها الخطأ والزلل(١٣٤).
- حققت نجاحا منقطع النظير في نشر العلم، ولا سيما ما يتصل بالعلوم العقدية؛ حتى "عرف التوحيد الصغير والكبير بعد أن كان لا يعرفه إلا الخواص، واجتمع الناس على الصلوات والدروس،

---

(١٣٠) الفقي، أثر الدعوة الوهابية، ص ٦.

(١٣١) البسام، الحياة العلمية في نجد، ص ٢٦٦-٢٦٧

(١٣٢) ابن بشر، عنوان المجد، ١/٢٧.

(١٣٣) العيسى، الحياة العلمية في نجد، ص ١٣٨.

(١٣٤) العجلان، حركة التجديد والإصلاح، ص ٧١.

والسؤال عن معنى لا إله إلا الله وفقه معناها، والسؤال عن أركان الإسلام وشروط الصلاة وأركانها وواجباتها ومعاني قراءتها وأذكارها، فتعلم ذلك الصغير والكبير والقارئ والأمي بعد أن كان لا يعرفه إلا الخصائص، وانتفع بعلمه أهل الآفاق؛ لأنهم يسألون عما يأمر به وينهى عنه، فيقال لهم: يأمر بالتوحيد وينهى عن الشرك"(١٣٥).

- أعادت بناء شخصية الإنسان من الناحية العلمية، وخاطبته بما يصلحه في الدنيا والآخرة، ورفعت من مكانته اللائقة به، وعملت على تجديد فهمه للإسلام؛ ليكون موافقا لهدي القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لذا لا غرابة في أن تتكئ على التعليم، وتتخذه وسيلة إلى تحرير هذا الإنسان من قيود الجهل والأمية، وأداة لتطهير قلبه وعقله من شوائب الخرافة والشرك والبدعة، وتعميق التوحيد الصحيح في نفسه، وهدم كل ما يناقضه من الاعتقاد الباطل، وتزويده بأسس العلم الصحيح، وتعريفه بطرائق الوصول إلى الحق واليقين.

- استطاعت أن تخلص العلم من قبضة الخرافة حينما حددت مصادر العلم والمعرفة الصحيحة في مصدرين، هما: الكتاب والسنة، وغرست في القلوب تعظيمهما، ودعت إلى الاحتكام إليهما وحدهما، فهذه الدعوة كانت في منهجها العلمي واضحة المصادر، لا ترى مصدرا للعلم اليقيني إلا ما أنزله الله تعالى، وأخبر عنه الرسول ﷺ(١٣٦)، وما دلا عليه، وما عداهما ظني في الدلالة والمقتضى.

---

(١٣٥) ابن بشر، عنوان المجد، ١/١١٤.

(١٣٦) نصير، الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، ص ٩١.

إحياء منهج الالتزام بالإسلام في جميع نواحي الحياة

كانت غاية الشيخ محمد بن عبدالوهاب في اهتمامه بالعلم وإصلاح منهجه أن يجعل منه أداة فاعلة تسهم في الارتقاء بالإنسان وبقدراته إلى وظيفة العبودية لله تعالى التي خلق من أجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقد تجلت هذه الغاية في اتخاذه العلم وسيلة لبيان حقيقة التوحيد والعبادة، وتبصير الناس بأمور الدين، وأداة لتجسيد القيم والمبادئ، وبناء الأخلاق الكريمة في النفوس والواقع، وهذا يعني أن دعوته لم تكن مسلكا نظريا مستغرقا في التأملات الفكرية والبحث العقلي دون عناية بالواقع والحياة، وإنما كانت تسعى عن طريق العلم إلى جعل الحياة في كل مناحيها تفسيرا معاشا للقرآن والسنة النبوية، وفي كل مجالاتها تطبيقا عمليا لهما.

لقد تجلى هذا في سعي الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى إقامة الحياة وفق دلالة العلم الشرعي، وفي عنايته بالواقع مثل عنايته بالفكر، فهو يؤمن بأنه لا ثمرة ناضجة تجتنى إذا لم يكن هناك تلازم بين العلم والعمل، واهتمام بصحة الفكر واستقامة الواقع، فكل من القول والعمل قسيما مبنى الدين، وأساسا تكوينه، وهما يمثلان حقيقة الإيمان عند السلف الصالح، الذين لم يعرفوا الفصل بين القول والعمل، ولم يرتضوا قصر حقيقة الإيمان على أحدهما، ومن هؤلاء الإمام البخاري(١٣٧) الذي دفع توهم أن يعتقد أن الإيمان هو مجرد القول قائلا: "الإيمان قول وفعل"(١٣٨).

ظهر الشيخ بدعوته والمجتمع في نجد يعاني من انفصام كبير بين العلم الشرعي والحياة، فهما لا يكادان يلتقيان في الجملة إلا في

---

(١٣٧) أبو عبدالله، محمد بن إسماعيل، الحافظ المحدث، صاحب كتاب الجامع الصحيح، توفي بخرتنك سنة ٢٥٦هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٨٨/٤.

(١٣٨) صحيح الإمام البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: "بني الإسلام على خمس".

سلوك بعض الأفراد، وممارسة بعض أركان الإسلام، وتحاكم أهل الحضر أمام القضاء في بعض الحقوق، ولكن أغلب الحال يدل على أن العلم الشرعي قد انطوى عليه أهله، وأن كثيرا من مظاهر الحياة صارت غير ملتزمة به، ولا خاضعة لتأثيره، ولا أدل على ذلك من ظهور الشرك في المجتمع، ورواج البدع بين أفراده، وتهاون الناس في أداء الصلاة، وتعطيل الأمراء إقامة الحدود، والإكثار من سفك الدماء بغير وجه حق، وانتهاب الأموال على وجه القوة والظلم؛ حتى صار الدين الصحيح في حال من الغربة الشديدة بين أناس لا يعملون به، ولا يقيمون حياتهم على وفق هديه، ولا يتقيدون بأحكامه، اتبعوا الأهواء، فتفرقت بهم السبل عن سبيل الحق والهداية إلى حال من الضلال والغواية، ومالت بعقائدهم عن التوحيد الخالص لله تعالى إلى تعظيم القبور والمشاهد والتعلق بهما، وملأت حياتهم بالمعاصي والبدع والمنكرات والعظائم.

لمس الشيخ محمد بن عبدالوهاب وشاهد بعينيه هذه الغربة، وأدرك بعد الناس عن تعاليم الإسلام ومجافاتهم لأحكامه، فرأى أنه لا سبيل إلى زوال هذه الغربة، وظهور الإسلام بنقائه من جديد إلا بالعودة إلى نصوص كتاب الله المجيد، وأحاديث الرسول ﷺ الكريمة، والسير على طريقة السلف الصالح في حماية جانب التوحيد، ومحاذرة الوقوع في الشرك بكل أنواعه وأشكاله، ومحاربة البدع والخرافات التي أدخلت على الإسلام عبر العصور الغابرة، والابتعاد عن تأويلات بعض المتلبسين بلباس أهل الدين، الذين لم يقيموا للنصوص الشرعية وزنا، وأضاعوا بتأويلاتهم الزائفة حقيقة الدين الحنيف لما جعلوا منها سندا لإباحة تعظيم القبور والمشاهد، وصارت فتنة سوغت لضعاف النفوس من الجهال والعامة التعلق بهذه القبور والمشاهد، وتعظيمها من دون الله(١٣٩).

---

(١٣٩) خزعل، حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ٦٥-٦٦.

لقد أدرك الشيخ بثاقب نظره أنه لن يستطيع إحداث تغيير شامل، يزيل غربة الدين، ويؤدي إلى إعلاء كلمة التوحيد، وإقامة شرع الله ودينه الحنيف، وينقل دعوته من حيز النظرية إلى التطبيق ما لم تكن دعوته في حماية أمير يجمع أنصارها، ويصد عدوها، ويمكنها من تحقيق أهدافها ومبادئها، وهذا يعني أن فكرة التلازم بين القول والعمل في تحقيق معنى الدين وإقامته واضحة في ذهنه وفي تصميمه وعزمه من أول دعوته، فإنه بمجرد أن هدى الله أمير العيينة عثمان بن حمد بن معمر لنصرة دعوته بادر إلى هدم ما كان يعظم من القباب والمساجد والمشاهد المبنية على قبور الصحابة رضي الله عنهم في الجبيلة، وقطع ما كان يتبرك به من الأشجار كشجرة قريوه، وأزال جميع المحظورات، وبدلها وفق السنن المشروعة(١٤٠).

نعم كان الشيخ حريصا على أن يجتث في العيينة المعتقدات الضارة، وأن يعيد الحياة في مجتمعها إلى تعاليم الإسلام الصحيحة، وما كان أن يتم له ذلك دون عناء وابتلاء، فقد اشتدت عليه الخصومة، وأحيط بالعداوة؛ فلم يوهن ذلك من عزيمته، ولم يثن من تصميمه، ولم يعدل به عن إصراره على المضي في التغيير العملي لكل ما كان منافيا للتوحيد الخالص، مخالفا للشرع الحنيف؛ بل ازداد ثقة في تمكين الله له، وغلبة منهج الحق، وظهور أصحابه ولو بعد حين؛ فهو القائل لابن معمر أمير العيينة لما تخلى عن نصرته حينما وقع تحت تهديد حاكم الأحساء سليمان بن محمد(١٤١): "هذا دين الله ورسوله ﷺ، ولابد لمن يقوم به من الامتحان، ثم يكون له التمكين السلطان والغلبة والظهور"(١٤٢).

---

(١٤٠) ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، ١/٣٠.

(١٤١) ابن براك آل حميد، تولى حكم الأحساء سنة ١١٣٥هـ، وامتد سلطانه على الأحساء ونجد، توفي في بلد الخرج سنة ١١٦٦هـ. العبدالقادر، محمد بن عبدالله، تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، مكتبة الأحساء الحديثة، ص ١٢٤.

(١٤٢) ابن بشر، عنوان المجد، ١/٢٣.

ولما اضطر الشيخ إلى الرحيل من العيينة اتجه إلى الدرعية ليبحث لدعوته عن نصير آخر، حيث يوجد له فيها أتباع ومؤيدون، فلما وصل سمع بوصوله أميرها محمد بن سعود، فقام من فوره مسرعا إليه، وأبدى له غاية الإكرام والتبجيل، وتحقق للشيخ ما أراد، فقد عرض عليه أن يقيم في الدرعية، وأن يمنعه ما يمنع به نساءه وأولاده من جميع من عاداه وكاده، وأن يعينه على دعوته على أن لا يخرج عنه إلى بلاد أخرى(١٤٣)، ويدل هذا التعاقد بين الشيخ والأمير على أمرين:

الأمر الأول: ثبات الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - على مبدئه، فإنه على رغم ما اعترضه من عقبات بقي مصرا على إقامة مجتمع يلتزم بتعاليم الإسلام، وتطبق فيه شريعة الله في كل جوانبه(١٤٤).

الأمر الآخر: حرص الشيخ محمد بن عبدالوهاب على تحقيق تغيير جذري وسريع للأفكار المنحرفة الرائجة، والأعمال الشركية الظاهرة عن طريق القوة والسلطة؛ إذ كان يعلم أن الاقتصار على مجرد التعليم والوعظ والإبلاغ لن يحقق له هذا التغيير، فقد حاول غيره، فلم تجد محاولاتهم فتيلا، ولم تحدث تغييرا يذكر، وبقيت الحال على ما كان؛ بل زادا الباطل زهوا واستشراء؛ لذا نزع إلى السلطة لتكون كهفا تأوي إليه دعوته، ونصيرا يحميها، وقوة تمكنها من تحقيق أهدافها ومبادئها في النفوس والواقع.

مضى الشيخ بعد استقراره في الدرعية يصلح الخرق، وينسخ الشبهات، ويبطل الأوهام، وينقض التفاسير الباطلة والتأويلات المتضاربة، ويدحض البدع، ويقيم شرع الله، وينفذ حدوده، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويجتث أي مظهر حسي أو معنوي لعبادة

---

(١٤٣) ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، ٢/٣-٤.

(١٤٤) ابن غنام، حسين، تاريخ نجد، تحقيق ناصر الدين الأسد، ص ٤٩.

غير الله، ويعمل على الرجوع بمجتمعه إلى الإسلام، والأخذ به على أوله وأصله، ولبابه وجوهره، والاستمساك بالوحدانية التي أوحى الله بها إلى صاحب الرسالة ﷺ صافية نقية، والاهتداء بالقرآن، والاقتداء بالسنة الصحيحة، والعمل بأركان الدين وفروضه وقواعد الآداب والأخلاق؛ حتى غدا مجتمعه في مجمله صورة حية وواقعا عمليا للإسلام في العقائد والأحكام، ورجع الدين إلى حالة أصله، واستمسك الناس به على حاله الأولى(١٤٥) من غير زيادة أو نقصان.

واستطاع الشيخ وبمؤازرة الأمير محمد بن سعود وابنه الأمير عبدالعزيز أن يقيم "الدين كله في التعليم والعمل والسياسة والقضاء، وجباية الزكاة، وإقامة الحدود، ونشر العدل بين الناس، ورفع الظلم عنهم، وتأمين السبل وتحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع في الأمور المادية والمعنوية على السواء، وبناء قوة سياسية وحربية واجتماعية يحسب لها حسابها في المنطقة"(١٤٦)، فوضع بهذا الصنيع صورة الإسلام الأولى في نصابها التام من الحقيقة، وجعل تعاليم الدين مؤثرة في نفسية المسلمين، وحياتهم ذات حيوية وقدرة على التوجيه؛ حتى صار مجتمع الدرعية دليلا ظاهرا على أن الإسلام قادر في كل زمن على أن يبني للإنسان حياة كريمة(١٤٧) في ظل دولة تقوم على مبادئ الدين الصحيح.

وإذا كان الشيخ اهتم بالإصلاح العقدي أكثر من غيره فإن هذا يعود إلى شدة ما كان يعاني منه مجتمعه من الانحراف الديني الذي فاق غيره تدهورا وانحطاطا، ولأن إصلاح العقيدة في النفوس والمجتمع هو أساس كل إصلاح(١٤٨)، فهل كان من المستساغ أن يركز

---

(١٤٥) ستودارد، لوثروب، حاضر العالم الإسلامي، دار الفكر العربي، ١/٢٦٤.

(١٤٦) العجلان، حركة التجديد والإصلاح، ص ١٩٢.

(١٤٧) الأثري، الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ٢٦.

(١٤٨) السلمان، محمد عبدالله، حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، إدارة الثقافة والنشر، جامعة الإمام، ص ٢٤.

الشيخ محمد بن عبدالوهاب اهتمامه على إصلاح أي جانب من جوانب الحياة، ويتغافل عن الممارسات الشركية والبدعية الظاهرة في مجتمعه، ويعرض عنها، إن "المصلح الديني لا يرى سبيلا للقيام بالإصلاح وبلوغ الغاية إلا بنسخ جميع البدع والأوهام اللاصقة بالدين دون اعتبار صفاتها وماهيتها"(١٤٩) أولاً، ثم يقوم بإصلاح ما سواها من جوانب الحياة.

ذلك أن إظهار العقائد الصحيحة النقية من كل الشوائب هو الذي يعيد لجوانب الحياة في المجتمع المسلم حيويتها من جديد بعد أن تتحول بمرور الزمن، وانتشار الجهل، وتعطيل استثمار العقل، وعدم الانتفاع بالقرآن والسنة مباشرة أخذاً وعملاً إلى أشكال جامدة ومظاهر فارغة وعادات جافة، فيحصل بهذا الإظهار للعقائد الصحيحة تغيير جذري يتجدد به الإيمان، ويقوى به روح الدين، فيتخذ الناس منه منهجا يقترن بالوعي والتصميم الجديدين، ويعبد الإنسان المسلم ربه على علم وبمعنى وشعور بعد أن كان يعبده جريا على العادة والتقليد(١٥٠)، وهو ما حدث فعلا وواقعا في نجد وما حولها من أنحاء الجزيرة العربية، فقد كان التغيير الذي أحدثته دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب شاهدا حيا على التغيير الذي أدى إلى الالتزام الدقيق بالإسلام في جميع جوانب الحياة، يلمسه كل دارس للتطورات التاريخية والاجتماعية والثقافية التي طرأت على هذه المنطقة في العصر الحديث.

كانت هذه التغيرات شاملة تناولت كل جوانب الإنسان، وكانت ذات أبعاد مؤثرة اتصلت بكل جوانب الحياة من العقيدة والفكر والسياسة والنواحي الاجتماعية، ومن أبرز هذه التغييرات:

١ - تصحيح عقائد الناس: عني الشيخ من أول دعوته ببيان التوحيد، والتعريف بأنواعه، واهتم بحماية جانبه من كل ما يؤدي إلى

---

(١٤٩) ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ١/٢٦٥.

(١٥٠) خان، وحيد الدين، قضية البعث الإسلامي، دار الصحوة، ص ٣٣.

نقضه وإبطاله، فكانت دعوته دعوة إلى التوحيد الصحيح النقي من شائبة الشرك والبدعة، وكان شعاره لا إله إلا الله، يسعى إلى توضيح معانيها لكل واحد، ويعمل على ترسيخ حقيقتها في أذهان الجميع(١٥١)؛ والذي حمله على بذل هذا الجهد، والتفاني في تحقيق الهدف منه ما لحظه من غياب المعنى الصحيح للتوحيد عند كثير من الناس من العلماء والعامة(١٥٢)، وظهور ما ينقض التوحيد من الاعتقادات والممارسات، فقد ذكر الشيخ عثمان بن بشر أنه: "كثر - أي في نجد وغيرها في ذلك الحين - الاعتقاد في الأشجار والأحجار والقبور والبناء عليها والتبرك بها، والنذر لها، والاستعاذة بالجن والنذر لهم، ووضع الطعام، وجعله لهم في زوايا البيوت؛ لشفاء مرضاهم ونفعهم، والحلف بغير الله، وغير ذلك من الشرك الأكبر والأصغر"(١٥٣).

لقد ترك هذا الاعتقاد المنحرف الذي ساد بين الناس وانتشر بينهم بصمات واضحة المعالم على حياة الناس وسلوكياتهم وطرائق تفكيرهم، لا يمكن إزالتها ما لم يصحح هذا الاعتقاد من أصله، ويرسخ مكانه الاعتقاد الصحيح، وهذا ما حمل الشيخ محمد بن عبدالوهاب على العناية بعرض التوحيد في كل مناسبة، وعن طريق كل وسيلة متاحة من تعليم ووعظ ومكاتبات للأمراء والعلماء وعامة المسلمين، يشرح ويبين حقيقة التوحيد، ويدعو إلى تنقيته من شوائب الشرك والبدع، ويؤكد الالتزام التام والكامل بمقتضاه، والحذر من الانزلاق في شيء من نواقضه، ولعل استعراض تراجم أبواب كتابه التوحيد يكفي دليلا على حرصه على تصحيح عقائد المسلمين مما داخلها من فساد

---

(١٥١) الندوي، مسعود، محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم، ص ١٨٦.

(١٥٢) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ١٨٧.

(١٥٣) ابن بشر، عنوان المجد، ١/١٩.

وباطل، فقد عقد أبوابا في بيان فضل التوحيد وتحقيقه والخوف من الشرك وتفسير شهادة أن لا له إلا الله، وبيان أن من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء ودفعه، والنذر لغير الله، والاستعاذة والاستغاثة بغيره، وحكم الرقى والتبرك بالشجر والحجر والسحر والكهانة والنشرة والتطير والتنجيم، وغير ذلك من المسائل العقدية التي يحتاج إليها الناس، وتمس واقعهم وحياتهم.

ولكن ما لبثت الحال أن تغيرت بفضل العناية التي أولاها الشيخ بمثل هذه المسائل العقدية، وصار أثرها ظاهراً في وضوح الرؤية وجلاء الهدف؛ ذلك أن الإنسان مرتبط أوثق ارتباط في حياته ووجهته وفكره بحقيقة التوحيد، فهي السبيل الوحيد لوصوله إلى تفسير صحيح لمعنى الحياة، وإلى معرفة الهدف الأساس من خلقه ووجوده(١٥٤)، وهي أقوى طاقة تمد النفس بالحيوية ويقظة الشعور، فمعرفة صفات الله الحسنى والإيمان بعلم الله الواسع وإحاطته الشاملة وحسابه الدقيق الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجزاؤه العادل يجعل النفس يقظة مرهفة، تحاسب صاحبها، وتراقبه في نواياه وقوله وعمله، وتوقظ فيه إدراك عواقبها، وتجعله لا يظلم، ولا يخون، ولا يتطاول، ولا يستكبر، ولا يجحد، ولا يفعل اليوم ما يخاف من حسابه غدا، ولا يعمل في السر ما يستحي منه في العلانية(١٥٥)، وهي كذلك أعظم مصدر يمنح الإنسان المسلم الأمن النفسي، ويحرر عقله من التأثر بالأباطيل والخرافات التي كانت غالبا ما تستولي على الجهال، وتوجه حياتهم؛ فإيمانه بأن الله وحده هو القوي المتين وهو القادر وهو المتصرف وهو المحيي والمميت، وأن كل شي يجري بتقديره

---

(١٥٤) الدسوقي، فاروق، استخلاف الإنسان في الأرض، المكتب الإسلامي، ص ٧٨.

(١٥٥) القرضاوي، يوسف، الإيمان والحياة، مؤسسة الرسالة، ص ٢٢٤.

وفق قدره وقضائه يجعله في حال من الاطمئنان على نفسه من أن تستولي عليها الأوهام، وعلى عقله من أن يستسلم للشبهات، وعلى قلبه وجوارحه من أن تخضع وتدين في العبادة والطلب لغير الله تعالى، وعلى حياته من أن تكون لعباً للدجالين من السحرة والكهان والمشعوذين.

٢ - إزالة مظاهر الشرك وسد الأبواب المؤدية إليه: نشط الشيخ من أول دعوته في إزالة المظاهر الشركية القائمة في البلدان القريبة منه، التي يعظمها العامة، ويصرفون إليها ألوانا من العبادات كالتبرك بها، واللجوء إليها لجلب نفع أو دفع ضر، والعكوف عليها، وطلب المدد والعون من أصحابها، فقد ذكر الشيخ حسين بن غنام أن أمير العيينة عثمان بن معمر لما تبعه وناصره خرج مع الشيخ ومن تبعه إلى الأماكن التي توجد بها القباب والمساجد والمشاهد المبنية على قبور الصحابة رضي الله عنهم فهدموها بالمعاول، وإلى أماكن الأشجار التي يعظمها العامة، ويتبركون بها كشجرة قريوه وأبي دجانة والذيب فقطعوها، ولم يبق في البلاد التي تحت حكمه وثن إلا أزالوه(١٥٦).

ولعل الشيخ قصد من مبادرته إلى إزالة هذه المظاهر اجتثاث الشرك من أصله، وتهوين أمره في النفوس بعد أن درجت على تقديس مظاهره، وإبطال ما كان يعتقد من أن تعظيمها من الشرع والسنة، وقد اقترن العمل ببث الوعي الكافي بين الناس، المبين لضرر هذه الأعمال الشركية ومفاسدها ومنافاتها لإخلاص الدين لله تعالى الذي هو لب التوحيد، يدل على هذا قوله: "بينت للناس إخلاص الدين لله، ونهيتهم عن دعوة الأنبياء والأموات من الصالحين وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يعبد الله

---

(١٥٦) ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، ١/ ٣٠-٣١.

به من الذبح والنذر والتوكل والسجود وغير ذلك مما هو حق الله الذي لا يشركه فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم"(١٥٧).

وعمل الشيخ على سد جميع الطرق التي تؤدي إلى هذه المفاسد؛ فأعطى الوسائل حكم المقاصد والغايات، فمنع من الذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله، ونهى عن الغلو في الصالحين، وعن تعظيم قبورهم، وغَلَّظ على من يعبد الله عند قبر رجل صالح خشية من الوقوع في الشرك، وحماية لجانب التوحيد، فإن كثيرا من الوسائل التي تؤدي إلى اضمحلال التوحيد وتنقصه قد تبدو في صورة حسنة، ولكنها في حقيقة الأمر سيئة، مثل ما يحصل عند قبور الأولياء والصالحين قد يبدو للعامة أو يصور أنه يفعل على وجه الاحترام والتكريم والتعظيم لهم؛ لكنه في الحقيقة إهانة لأصحابها، وتنقص لأهلها؛ إذ خرجوا بما يصرفونه إليهم من أعمال عما يليق بهم، وقد حرمه الإسلام لما يجر إليه من الظلم العظيم، وهو الشرك، فالغلو وسيلة تنقل الغالي من تعظيم الأولياء وطاعتهم وإنزالهم منازلهم من العبودية إلى المبالغة في تعظيمهم وطاعتهم وإنزالهم منازل الألوهية عن طريق تعظيم قبورهم، والعكوف عليها، واتخاذها أعيادا ومجامع للزيارات(١٥٨)، وهكذا فإن الغلو في هذه القبور يصيرها أوثانا تعبد من دون الله تعالى، ويورث شيئا فشيئا التأله والعبادة لها(١٥٩)؛ بل قد يؤدي إلى اعتقاد العامة أن تعظيمها من شعائر الدين الظاهرة، كما أن المبالغة عن طريق تقديم أقوال الأئمة على قول الله ورسوله ﷺ، والاقتداء بهم مع ما فيه من مخالفة

---

(١٥٧) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ١٥٠.

(١٥٨) آل الشيخ، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، ص ٣٤٥.

(١٥٩) ابن قاسم، عبدالرحمن بن محمد، حاشية كتاب التوحيد، المطبعة الأهلية، الرياض، ص ١٦٤.

أمر الله ورسوله ﷺ شرك مناف للتوحيد، فمن فعل ذلك مع أولئك الأولياء والصالحين والعلماء لم يكن معظما ولا محترما لهم؛ فأي تعظيم لهم واحترام في مثل هذا الغلو أو المبالغة المخرج لهم عن اللائق بهم.

ولم تكن جهود الشيخ محمد بن عبدالوهاب في إزالة الشرك وسد الطرق المؤدية إليه مقصورة على بلدان نجد فحسب، وإن كانت منطلق دعوته وعمله التغييري؛ بل تجاوزتها ممتدة إلى كل ما خضع لها من البلدان؛ لتقضي على مظاهر الشرك التي انتشرت في أغلب جزيرة العرب، ولم تكن في إزالتها لهذه المظاهر الشركية قد أتت أمرا بدعاً لم يكن معهودا من قبل؛ بل إنها أحيت منهج السلف في تسوية كل مشرف من القبور، وعملت على صيانة توحيد العبادة من أن يصرف أو نوع منه لغير الله تعالى، وأعادت بذلك صورة العبادة إلى ما كانت عليه في عهد السلف، خالصة من أي شائبة من شوائب الشرك أو البدع.

٣ - حمل الناس على العمل بأحكام الإسلام: تميزت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بأنها دعوة عملية، تسعى إلى الإصلاح، وتغتنم كل فرصة سانحة تؤدي إليه، ولا ترضى بالتسويف أو التأجيل في إقامة شرع الله تعالى، فإن الشيخ منذ أن أقام في العيينة وهو "يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويعلم الناس دينهم، ويميت ما قدر عليه من البدع، ويقيم الحدود، ويأمر الوالي بإقامتها"(١٦٠)، ويؤدب من تخلف عن الصلاة جماعة، ومن لم يصل جملة، ويجبي الزكاة وغير ذلك من أمور الدين(١٦١).

وأنه بمجرد أن استتب له الأمر في الدرعية، وتحققت له النصرة الصادقة من أميرها محمد بن سعود بادر إلى تنفيذ الأحكام

---

(١٦٠) ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، ٢/٢.

(١٦١) المصدر نفسه، ٣٨/١.

الشرعية، وإلزام الناس بها، وقد وظف مكانته الاجتماعية والعلمية من أجل تحقيق ذلك، فلا ريب أن كبير القوم، والعالم فيهم يكون أكثر تأثيرا في الناس من صغيرهم أو جاهلهم، وأقدر على إقناعهم للانصياع لأوامر الله تعالى عن طيب نفس، واستسلام تام، وإذعان شامل، بحيث تعتقد قلوب هؤلاء وجوب الطاعة لله ورسوله ﷺ، وتعظيم الشعائر وفرائض الدين، وتعمل جوارحهم على أدائها على صفتها الشرعية دون ملل أو كلل(١٦٢)، فلا غرابة إذًا في أن يبذل الشيخ من جاهه ومكانته ما يعين على إقامة شرع الله تعالى واجتناب نواهيه، وفي هذا يقول الشيخ: "أنا صاحب منصب في قريتي، مسموع الكلمة...، وقد ألزمت من تحت يدي بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغير ذلك من فرائض الله، ونهيتهم عن الربا وشرب المسكر وأنواع المنكرات"(١٦٣).

إن الشيخ كما يصرح لا يختلف عن معاصريه من العلماء في أحكام الشريعة؛ لكنه يفارقهم في عدم الاكتفاء بالدعوة إلى العمل؛ لما سعى إلى الإلزام بأحكام الشرع(١٦٤)، وفي هذا يقول: "ما اختلفنا - أي مع الناس - في شيء من شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وصوم وحج وغير ذلك، ولا في شيء من المحرمات، الشيء الذي عندنا زين هو عند الناس زين، والذي عندهم شين هو عندنا شين؛ إلا أنا نعمل بالزين، ونغصب الذي يدنا عليه، وننهى عن الشين، ونؤدب الناس عليه"(١٦٥).

لقد كان الإلزام بأحكام الشرع واقعا عمليا لهذه الدعوة، وواجبا من واجبات الدولة، تحمل رعيتها عليه بالأمر والقوة، يقول

---

(١٦٢) خياط، عبدالله، حركة الإصلاح الديني في القرن الثاني عشر، ص ١٣٨.

(١٦٣) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ١٥٠.

(١٦٤) الزايدي، عبدالله بن عبدالعزيز، مفهوم الحاكمية في الفكر الإسلامي الحديث، ص ١٧٢.

(١٦٥) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ٤٤.

الأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود في إحدى رسائله التي يبين فيها طبيعة مسلك الدعوة وواقعها: "نأمر جميع رعايانا باتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإقام الصلاة في أوقاتها، والمحافظة عليها، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا، ونأمر بجميع ما أمر الله به ورسوله من العدل وإنصاف الضعيف من القوي، ووفاء المكاييل والموازين، وإقامة حدود الله على الشريف والوضيع، وننهى عن جميع ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ من البدع والمنكرات؛ مثل: الزنا والسرقة، وأكل أموال الناس بالباطل، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وظلم الناس بعضهم بعضا، ونقاتل لقبول فرائض الله التي أجمعت عليها الأمة"(١٦٦).

٤ - نشر الأخلاق الحميدة وممارستها: إن هذه الدعوة حينما منعت من تحت سلطتها ممارسة كل ما هو محرم في الإسلام تكون قد طهرت مجتمعها من كل فساد ظاهر، واستأصلت كل رذيلة متفشية، وأتاحت للخير أن ينتشر وللفضيلة أن تعم، فحقنت الدماء التي كانت تسفك على غير وجه حق، وصانت الأعراض التي كانت تنتهك بالباطل، وعصمت الأموال التي كانت تؤخذ على سبيل الظلم والعدوان؛ بل لقد حولت هذا المجتمع الذي يغلب على أفراده الجهل والبداوة إلى مجتمع مهذب الأخلاق، قد انتفع بتعاليم القرآن، وانصاعت سجاياه لآداب السنة النبوية، إن هذا التحول الطارئ كان محل إعجاب الرحالة جوهان بوركهارت(١٦٧)،

---

(١٦٦) ابن قاسم، الدرر السنية، ١/٢٦٣.

(١٦٧) هو يُوهن لودفيك بركهارت، ولد في لوزان سنة ١١٩٩هـ، يسميه الإنجليز (جون لويس)، مستشرق سويسري رحالة، تعلم العربية، وقرأ القرآن، وتفقه في الإسلام، تظاهر بالإسلام، وتسمى بإبراهيم بن عبدالله، وأدى مناسك الحج، له كتب عدة منها (رحلة لجزيرة العرب)، توفي بالقاهرة سنة ١٢٣٢هـ. الزركلي، الأعلام، ٨/٢٦٤.

إذ يقول: "إن فضيلة الوهابيين ليست أنهم طهروا الديانة الموجودة فحسب؛ لكن لأنهم جعلوا العرب يزاولون بدقة الأخلاق الإيجابية لدين واحد. ذلك أنه بالرغم من أن البدو في كل زمان عبدوا الله بإخلاص فإن المبادئ الإلهية وحدها لم يكن من المعتقد أن تكفي لتعليم أمة جافة صعبة المراس مزاولة الفضيلة والعدل"(١٦٨).

٥ - إقامة الحدود: حرص الشيخ على إحياء ما عُطِّل العمل به من أحكام الشريعة منذ أن استطاع تحكيم شرع الله تعالى في العيينة، فقد نفذ فيها أول حد وهو رجم المرأة التي اعترفت عنده بالزنا، فتعرض لإنكار شديد من بعض علماء عصره بسبب إقامته لهذا الحد؛ مما يدل على أن هذا الحد الشرعي كان معطلا منذ مدة(١٦٩)، فقد ذكر الشيخ حسين بن غنام أنهم أنكروا بقلوبهم وعقولهم سنة الرسول ﷺ، وتطاولت ألسنتهم عليه مع كون حد الزنا حكما مشروعا بالسنة والإجماع(١٧٠)، وإذا كان لبعض هؤلاء من شبهة فهي أن إقامة الحد لابد فيه من الرجوع إلى الإمام الأعظم؛ وقد ردها الشيخ بقوله: "الأئمة مجمعون من كل مذهب على أن من تغلب على بلد أو بلدان له حكم الإمام في جميع الأشياء، ولولا هذا ما استقامت الدنيا؛ لأن الناس من زمن طويل قبل الإمام أحمد إلى يومنا هذا ما اجتمعوا على إمام واحد، ولا يعرفون أحدا من العلماء ذكر أن شيئا من الأحكام لا يصح إلا بالإمام الأعظم"(١٧١).

---

(١٦٨) بوركهارت، جوهان، مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة الدكتور عبدالله العثيمين، د.ن، ص ٢٦.

(١٦٩) الزايدي، مفهوم الحاكمية، ص ١٧١.

(١٧٠) ابن غنام، روضة الأفكار والأفهام، ٢/٢-٣.

(١٧١) ابن قاسم، الدرر السنية، ٥/٩.

ما كان لإنكار هؤلاء أن يوقف الشيخ أو يمنعه من إقامة شرع الله تعالى، ويسوغ له تعطيل حدوده؛ لا سيما وأن الأوضاع القائمة كانت تستدعي ردع المجرمين، وزجرهم عن الاعتداء على الآخرين، وتثبيت أركان الأمن، وصيانة الحقوق، وتقويم المعوج من الأخلاق، والترفع عن الرذيلة في كل مجالاتها، فما المانع من معاقبة المجترئ على سفك الدم الحرام بالقصاص إذا ثبتت إدانته، ومن قطع يد السارق للأموال المعصومة إذا ثبتت إدانته، واستوفى شروط القطع؟(١٧٢) وما المانع من ردع كل مجرم بعقوبة مقدرة أو اجتهادية زاجرة حسب معصيته وذنبه تكفل أمن الفرد، وتضمن له الحياة الكريمة في مجتمع مستقر، يعيش فيه مطمئنا على نفسه وكرامته وماله من غير خوف ولا امتهان؟ يقول ابن تيمية: "هذا لأن المعاصي سبب لنقص الرزق والخوف من العدو، كما يدل عليه الكتاب والسنة؛ فإذا أقيمت الحدود، وظهرت طاعة الله، ونقصت معصية الله حصل الرزق والنصر"(١٧٣).

٦ - تحكيم الشرع الإلهي في جوانب الحياة كافة: استهدف الشيخ من أول دعوته تحكيم شرع الله، فعلى رغم ما لقيه من معارضة شديدة بسبب إقامة حد الرجم على المرأة الزانية التائبة في العيينة إلا أنه لم يتراجع عن هذا الهدف؛ بل كان حريصا على أن يتم العمل بكل أحكام الشريعة، وأن يحيي ما عطل منها؛ لذا نجده فيما عرض على أمير الدرعية محمد بن سعود أن يبايعه على إقامة شرائع الإسلام(١٧٤)، ونراه يقيد سلطة الأمير محمد بن سعود بالشرع، فلم يقر له ما اشترطه أثناء البيعة أن "لا يتعرضه

---

(١٧٢) خياط، حركة الإصلاح الديني، ص ١٣٨.

(١٧٣) ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار الكتاب العربي، ص ٧٦.

(١٧٤) ابن غنام، تاريخ نجد، ١/٨١.

فيما يأخذه من أهل الدرعية - من مال، يبدو أنه لم يكن على الوجه الشرعي - مثل الذي كان يأخذه رؤساء البلدان على رعاياهم، فأجابه الشيخ أن... يتركه رغبة فيما عند الله سبحانه"(١٧٥)، وهذا يعود إلى أن الشيخ كان ينطلق من أساس فكري يتصل بتوحيد العبودية، هو أن الله وحده المشرع، وهو وحده الذي يحلل ويحرم(١٧٦)، وقد أوضح هذه الصلة حفيده الشيخ سليمان بن عبدالله(١٧٧) في قوله: "من عرف أن لا إله إلا الله فلابد من الانقياد لحكم الله والتسليم لأمره الذي جاء من عنده، على يد رسوله محمد ﷺ، فمن شهد أن لا إله إلا الله ثم عدل إلى تحكيم غير رسول الله ﷺ فيما ورد النزاع فيه فقد كذب في شهادته"(١٧٨).

لذا عمل الشيخ على بناء عقيدة توحيد العبودية لله تعالى في النفوس والقلوب؛ ليؤسس عليها حق الاعتراف بسلطان الخالق، وهيمنته على جميع الأمور، وأن لله وحده حق التأليه العام، والعبودية المطلقة، والحكم والأمر، لا يطاع أحد فيما فيه معصيته(١٧٩)، كما قال الرسول ﷺ لعبدالله بن مسعود رضي الله عنه(١٨٠): "كيف بك يا عبدالله إذا كان عليكم أمراء يضيعون السنة، ويؤخرون الصلاة عن ميقاتها؟ قال: كيف تأمرني يا رسول الله؟

---

(١٧٥) ابن بشر، عنوان المجد، ١/٢٥.

(١٧٦) أمين، أحمد، زعماء الإصلاح، ص ١٢.

(١٧٧) فقيه، برع في التفسير والحديث، قتله إبراهيم باشا غدرا بعد دخوله الدرعية، واستيلائه عليها سنة ١٢٣٣هـ. الزركلي، الأعلام، ٣/١٢٩.

(١٧٨) آل الشيخ، تيسير العزيز الحميد في التوحيد، ص ٥٥٤-٥٥٥.

(١٧٩) خياط، حركة الإصلاح الديني، ص ١٣٧.

(١٨٠) هو أبو عبدالرحمن الهذلي، من أوائل الصحابة إسلاما، هاجر الهجرتين، شهد بدرا والمشاهد كلها، وشهد فتوح الشام، من قراء الصحابة، شهد له الرسول ﷺ بالجنة. العسقلاني، الإصابة، ٦/٢١٤.

قال: تسألني ابن أم عبد، كيف تفعل؟ لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل"(١٨١)، ولا يحق للمخلوق أن يؤمن بسلطة فوق سلطة الخالق؛ لأن سلطة المخلوقين لها حق الطاعة في حدود تشريع الله تعالى وحكمه، ففي حديث آخر: "لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف"(١٨٢).

وكان من مقتضى تحقيق طاعة الله تعالى أن يلغي الشيخ كل ما ينافيها في ظل الظروف القبلية السائدة في نجد وغالب الجزيرة العربية، فأبطل نظام التحاكم إلى الأعراف وما يعرف بالسلوم، ويسمونه الحق(١٨٣)، وأعاد تنظيم العلاقة بين الخالق والمخلوق، فأقامها على أساس أن من الإيمان بالكتاب كله التحاكم إلى الله تعالى في الأمور كلها؛ وفي الجملة فإنه أنكر كل الأوضاع المناقضة لهذا الأساس، قائلا: "إن من الناس من يصلي ويصوم، ويترك كثيرا من المحرمات؛ لكن لا يورثون المرأة، ويزعمون أن ذلك هو الذي ينبغي اتباعه؛ بل لا يورثها أحد... منهم، ويخالف عادتهم، إلا أنكرت قلوبهم ذلك، أو ينكر عدة المرأة في بيت زوجها مع علمه بقول الله تعالى: ﴿**لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ**﴾ [**الطلاق**: ١]، ويزعم أن تركها في بيت زوجها لا يصلح، وأن إخراجها عنه هو الذي ينبغي فعله، وأنكر التحية بالسلام مع معرفة أن الله شرعه حبا لتحية الجاهلية لما ألفها، فهذا يكفر؛ لأنه آمن ببعض، وكفر ببعض، بخلاف من عمل المعصية، أو ترك الفرض، مثل فعل الزنا، وترك بر الوالدين مع اعترافه أنه مخطئ، وأن أمر الله هو الصواب"(١٨٤).

---

(١٨١) رواه أحمد، ١/٤٠٩.

(١٨٢) رواه مسلم، في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ٣/١٤٦٩.

(١٨٣) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ٢٥.

(١٨٤) ابن قاسم، الدرر السنية، ١/١٢٣.

إن من موجبات الإيمان بالله تعالى ولوازمه الردَّ إليه في كل الأمور، والتحاكم إلى شرعه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ٥٩ - ٦٠]، ذلك "أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول ﷺ فقد حكم بالطاغوت، وتحاكم إليه، والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ﷺ أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله"(١٨٥).

لهذا المعنى العقدي كان ينكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب الانحراف في تنفيذ الشريعة كما ينكر الانحراف في العقيدة، فهو يرى أن شريعة الله هي الحق والعدل، من مال عنها فقد جار إلى الباطل والظلم(١٨٦)، وكان لا يعرف الفصل بين حال أهل البوادي وأهل الحضر في الإيمان والكفر، فجميعهم عنده لا يكون محققا للتوحيد، ولا سيما توحيد العبودية؛ إلا إذا كان يعتقد أن الله وحده المختص عن جميع ما سواه بالتشريع، وأنه إليه المرجع في الحكم، وأن حكمه هو الحق والعدل، وأن أحكام غيره لا تساويه فيهما، وأن من فَضَّل فراضة الطاغوت على حكم الله فهو كافر، وأن أهل البوادي يكفرون كالحضر إذا فعلوا ناقضا من نواقض الدين مع علمهم أن دين الرسول ﷺ عند الحضر(١٨٧)،

---

(١٨٥) ابن القيم، أعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الجيل، ١/٥٠.

(١٨٦) عثمان، محمد فتحي، السلفية في المجتمعات المعاصرة، دار آفاق الغد، ص ٥٧.

(١٨٧) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ٢٦.

فلم يسألوا عنه، وأصروا على العمل بأعرافهم المخالفة لحكم الله تعالى وأمره؛ لذا أفتى "بكفر البوادي الذين ينكرون البعث والجنة والنار، وينكرون ميراث النساء مع علمهم أن كتاب الله عند الحضر، وأن الرسول ﷺ بعث بالذي أنكروا"(١٨٨).

وعلى أساس هذا المعنى شهدت الحياة في نجد تغيرات كثيرة، هي بمثابة إحياء للعمل بالشريعة الإسلامية في جميع مجالات الحياة، من أهمها:

- إبطال الأسلوب العشائري الذي كان يتحاكم الناس إلى أعرافه، ليحَلَّ محله الحكم الشرعي المستمد من القرآن والسنة النبوية الصحيحة، فصار الناس يتخاصمون ويتناصفون وفق مجريات القضاء الشرعي القائم على البينات والحجج المعتبرة.
- إبطال نظام جباية الأموال من الناس على غير الوجه الشرعي، فألغي نظام المكس والعشور؛ ليحل محله نظام الزكاة الشرعي.
- إبطال أسلوب القوة في حسم الخلافات التي تنشأ بين الناس، ويكون الحق فيها دائما للقوي؛ ليحل محله اعتماد العدل بغض النظر عن حال المختلفين(١٨٩).
- إن هذه التغيرات تدل على أن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب انطلقت من نظرة شاملة، فهي لا تجد ناحية من نواحي الحياة إلا وقد وسعتها الشريعة بتفصيلاتها، وضبطتها بأحكامها المتنوعة، وأنها كانت على إدراك بأنه لا يستقيم أمر الحياة البشرية إلا إذا قام على منهج سليم، هو منهج القرآن والسنة.

---

(١٨٨) المرجع نفسه، ص ٤١.

(١٨٩) خزعل، حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ٣٣٨.

٧ - حماية حق المرأة: حرص الشيخ محمد بن عبدالوهاب على إصلاح وضع المرأة في المجتمع النجدي، فقد كانت بعض الأوساط تنظر إليها نظرة ازدراء وتنقص(١٩٠)، وآلت الحال ببعضهم إلى تعطيل العمل بأحكام الميراث، أو التحايل في أحكام الوقف، متبعين أهواءهم، وقاصدين حرمان المرأة من حقها في الإرث المقدر أو إنقاصه، فكان عملهم هذا مسخا لشرع الله تعالى الذي أثبت للمرأة حقوقها في الميراث والوقف، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

- حق الميراث: هو حق ثابت للمرأة بالكتاب والسنة والإجماع، ومع ذلك فإن التغيير بلغ بأهل البادية أنهم "لا يورثون المرأة، ويزعمون أن ذلك هو الذي ينبغي اتباعه، بل لا يورثها أحد....، ويخالف عادتهم إلا أنكرت قلوبهم ذلك"(١٩١)، فكان في هذا المسلك عودة إلى العمل بأعراف أهل الجاهلية الأولى التي لا تورث الأنثى بحجة أنها لا تقاتل دون القبيلة، ولا تحمي الذمار.

ولم يُقصِّر الشيخ في بيان أن من ينصرف عن شريعة الله وهو يعلمها كما هو شأن أهل البادية الذين أنكروا ميراث النساء مع علمهم بأن كتاب الله عند أهل الحضر، وأن رسول الله بعث بالذي أنكروا(١٩٢)، ويصرون على تركها، يصل ضلاله إلى الكفر، ولا يكون مقصورا على أحكام الفروع فحسب دون خسران التوحيد، ذلك أن في هذا الانصراف عن شرع الله إيثارا لحكم الهوى والطاغوت(١٩٣)، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١ - ٥٢].

---

(١٩٠) الجديد، فهد بن ناصر، دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتثبيت الأمن بمفهومه الشامل، مجلة البيان، العدد ٧٥، ذو القعدة عام ١٤١٤هـ، ص ١٩.

(١٩١) ابن قاسم، الدرر السنية، ١/١٢٣

(١٩٢) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ٤١.

(١٩٣) عثمان، السلفية في المجتمعات المعاصرة، ص ٥٨.

- الوقف: هو من عقود التبرع، يحصل بتحبيس أصل المال وتسبيل منافعه، ويفعل على وجه القربة، فهو "لا يصح إلا على بر أو معروف"(١٩٤)، ومنه أوقاف الصحابة رضي الله عنهم فإنها كانت "على جهات البر التي أمر الله بها ورسوله ﷺ، والتي ليس فيها تغيير لحدود الله تعالى"(١٩٥).

أما حال الناس زمن الشيخ محمد بن عبدالوهاب فقد حول الوقف إلى حيلة، يعقد في صورة صدقة وبر، وهو في الحقيقة وسيلة إلى حرمان الزوجة من الميراث، أو سبيل إلى زيادة الذكور من الأولاد على أخواتهم الإناث فرارا من أحكام الإرث، وحرمانا للبنات ونسلهم؛ لذا أنكره الشيخ، وعده "من أعظم المنكرات، وأكبر الكبائر لما فيه من تغيير لشرع الله ودينه، والتحايل على ذلك بالتقرب إليه... فإنه يفعله إذا أراد أن يحرم من أعطاه الله من امرأة أو امرأة ابن أو نسل بنات أو غير ذلك، أو يعطي من حرمه الله، أو يزيد أحدا عما فرض الله، أو ينقصه من ذلك، ويزعم أنه يريد التقرب إلى الله بذلك مع كونه مبعدا عن الله"(١٩٦).

بحق فإن هذه التغييرات الواسعة التي شهدتها نجد وأنحاء الجزيرة العربية تشهد على أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب كان من أكبر دعاة الإصلاح في العصر الحديث، الذين تمكنوا من بناء الشخصية المسلمة من جديد، وإعادة صياغة الحياة وفق منهج السلف الصالح، وتحويل مسيرتها رأسا على عقب؛ لتكون ملتزمة بالقرآن والسنة، نقية من الخرافات والأوهام والبدع والانحرافات،

---

(١٩٤) ابن قدامة، موفق الدين عبدالله بن أحمد، العمدة، مكتبة الرياض الحديثة، ص ٢٨٠.

(١٩٥) ابن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، ص ٧٨.

(١٩٦) المصدر نفسه، ص ٧٨-٧٩.

مقتدية بحياة الصحابة رضي الله عنهم التي لم تعرف إلا الجهاد في سبيل الله منهجا، ومرضاة الله مقصدا، والتزام أخلاق الإسلام سلوكا، والعمل بأحكام الشرع في جميع الأحوال نظاما ومسلكا، وأن دعوة الشيخ تعد وثبة جبارة، وقفزة رائعة لتصحيح أوضاع الحياة في وسط تشوهت فيه مبادئ الإسلام ومناهجه ونظمه[١٩٧].

دعوة الشيخ تعد وثبة جبارة، وقفزة رائعة لتصحيح أوضاع الحياة في وسط تشوهت فيه مبادئ الإسلام ومناهجه ونظمه

الخاتمة

من أهم متغيرات هذه الدعوة الثقافية التي خلصت إليها الدراسة ما يأتي:

- إلغاء نظرة التجزئة للإسلام، وتأكيد فكرة التلازم بين قضاياه، وإحلال النظرة الكلية التي تجمع ولا تفرق، وتعمل على صياغة الإسلام على أنه نسيج واحد مترابط الأجزاء، وبناء الأفكار والمفاهيم على أساس من الكتاب والسنة وقواعد الفهم المعتبر عند علماء السلف الصالح من غير غلو أو جفاء.
- زوال المظاهر الشركية المنافية للتوحيد، والممارسات البدعية القادحة في كماله، وخضوع الناس لأحكام الشرع في نواحيهم الاجتماعية والمالية والجنائية، وسلامة حياتهم من تأثير المنهج الفلسفي، وفتح باب الاجتهاد لضبط وقائع الحياة، وتعميق مفاهيم الإسلام في أمور الحياة، وإثرائها دائما بالفكر النقي المستمد من القرآن والسنة المطهرة، وفي ذلك تجسيد لمفهوم الإسلام الشمولي على أنه فكر وعمل، وتشريع وحكم، واستسلام لأوامر الله وانقياد لها في جميع أمور الحياة.

---

[١٩٧] الزحيلي، وهبة، تأثر الدعوات الإصلاحية الإسلامية بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ضمن بحوث أسبوع الشيخ، جامعة الإمام، ص ٢٩٦-٢٩٧.

- الارتقاء بالإنسان عن طريق التعليم، وتنمية قدراته العلمية، والانفتاح بفكره وذهنه، وتحريره من ربقة التقليد وألف الجمود على إرث الماضين، وتجديد فهمه للإسلام؛ ليكون موافقا لهدي القرآن والسنة، فقد استطاعت هذه الدعوة أن تجعل التعليم وسيلة إلى تحرير الإنسان من قيود الجهل والأمية، وأداة لتطهير قلبه وعقله من شوائب الخرافة والشرك والبدعة، وتعميق التوحيد الصحيح في نفسه، وهدم كل ما يناقضه من الاعتقاد الباطل، وتزويده بأسس العلم الصحيح، وتعريفه بطرائق الوصول إلى الحق واليقين، واستطاعت أن تخلص العلم من قبضة الخرافة إذ حددت مصادر العلم والمعرفة الصحيحة، وهي الكتاب والسنة، وغرست في القلوب تعظيمهما، ودعت إلى الاحتكام إليهما وحدهما.

- إحياء منهج الالتزام بالإسلام في جميع نواحي الحياة، فقد تمكنت هذه الدعوة من تصحيح عقائد الناس، ونشر التوحيد الخالص بينهم، وتوضيح الرؤية الصحيحة لهم، فصار الإنسان بذلك مرتبطا في حياته ووجهته وفكره بحقيقة التوحيد الصحيح التي منحته تفسيرا واضحا لمعنى الحياة، واستطاعت الدعوة أن تحمل الناس باقتناع على العمل بأحكام الإسلام، وأن تقيم دولة واسعة الأرجاء تأمر رعاياها باتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإقامة شعائر الدين، ونشر الأخلاق الحميدة، وتطهير المجتمع من كل فساد ظاهر، واستئصاله، وأن تحيي ما عُطِّل العمل به من أحكام الشريعة اعترافا بسلطان الخالق سبحانه وهيمنته على جميع الأمور، وإبطالا للأعراف الوضعية، وأن تحمي حقوق المرأة، وتصلح وضعها في مجتمع كان ينظر إليها نظرة ازدراء.